دونيز ماسون

Denise Masson

الكتاب : دونيز ماسون
المؤلف : **الهواري غزالي**
الطبعة : الأولى 2019
عدد الصفحات : 144
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 978-9954-705-48-3
الترقيم الدولي : 2018MO4452

جميع الحقوق محفوظة

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

دونيز ماسون

Denise Masson

الهواري غزالي

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

اللجنة العلمية

رئيسا اللجنة

عبد العزيز السبيل — أمين عام جائزة الملك فيصل

معجب الزهراني — مدير عام معهد العالم العربي

الأعضاء

بطرس حلاق — رشدي راشد

حسين الواد — فيليب بتريا

التنسيق

الطيب ولد العروسي

أميرة المنيعير

المحتويات

عتبـــة 7
مقدِّمة 9
الفصل الأول : حياة دونيز ماسون..... 15
1- ولادة على جناح الفنِّ بين الرَّسم والموسيقى 1901-1912 15
2- الانتقال إلى الجزائر 21
3- من حياة الدِّير إلى التَّمريض (1925-1929) 26
4- الانتقال إلى المغرب 1929 28
5- دراسة اللّغة العربيَّة..... 30
6- الاستقرار بدرب زمران 1938..... 31
7- وباء التِّيفوئيد، تجربة الموت الجماعي..... 38
8- تطلُّعٌ منتكِس 1940-1947..... 41
9- دونيز والاستعمار..... 44
عرض موضوعي لكتبها 50
1 ـ القرآن والوحي اليهودي ـ المسيحي 51
2 ـ التَّوحيد القرآني والتوحيد الانجيلي 52
3 ـ سبلُ الله الثلاث..... 57
4 ـ الماء، والنَّار والنُّور، وفق الانجيل والقرآن والسُّنن التوحيديَّة 59
5 ـ باب مفتوح على حديقة مقفلة: القيم الجوهرية والتقليدية
لمجتمع في قلب التَّطور، مراكش 1939-1989..... 60

الفصل الثاني : ترجمة القرآن 62
1 ـ إعجاب المهتمِّين بالترجمة 63
2 ـ دوافع الترجمة 73
3 ـ منهجية التَّرجمة 76
4 ـ انتقاد التَّرجمة 79
5 ـ الرَّد على انتقادات التَّرجمة 84
6 ـ نموذج من النَّقد الأكاديمي العربي لترجمتها 85
7 ـ مشكلة اسم المترجمة 96
الفصل الثَّالث : مـختارات مِمَّا كُتبَ عنها 99
1 ـ شهادة جون بيار كوفيل : 99
الفصل الرَّابع: مختارات من كتاباتها الفكرية والابداعية 114
1 ـ خصوصية القرآن 114
2 ـ اللا توافقية 116
3 ـ مفهوم الجمال كما يتجلَّى انطلاقا من النّصوص القرآنيَّة 119
4 ـ تأدُّبٌ مغربيٌّ وتأدُّبٌ فرنسي 127
خاتمة 138
ثبت بيبليوغرافي مختصر لأهم أعمالها، وبالمواقع الشبكية التي تخصُّها أو تتعلَّقُ بها 139
المصادر والمراجع بالفرنسيَّة 142

عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزًا مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة

على مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تمامًا أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشينًا لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئه الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

عبد العزيز السبيل　　معجب الزهراني

مقدِّمة

تكاد تكون دونيز ماسون مجهولةً إلى حدٍّ كبير في الوسط الثقافي العربي والفرنسي على السَّواء. فعلى الرَّغم من جهودها الجبَّارة في التَّعريف بالإسلام في أوروبا، وفي ترجمة القرآن إلى اللُّغة الفرنسية، وفي الإشادة في بحوثها بالـمجتمعات المغاربيَّة، فإنَّنا لا نعثر على دراسات قُدِّمت أو أُلِّفت تُنْصِفها من إجحاف العادلين عنها أو تمنحها من التَّقدير ما منحته هي من تعظيم واسع واحترام كبير في كتاباتها للدِّيانات التَّوحيديَّة الثَّلاث.

يقول جون بيير كوفيل، وهو يصف مدى جهل النَّاس لها: "ومن الجدير بالذكر، أنَّه بالنسبة لكثيرٍ من النَّاس – ونعذر منهم الشَّباب – اسم دونيز ماسون لا يستحضر في أذهانهم شيئاً على الإطلاق ويخاطر البعض عندما ينسبها إلى عالم السِّينما الأمريكية لما قبل الحرب"[1].

(1) ولقد نشرت دار "كراسات شمال إفريقيا" شهادة كتبها جون بيار كوفيل عن ماسون، وهي موثَّقة أيضا من خلال نشرها بموقع إلكتروني بصفحة "ثقافة" لمجلَّة "اليوم" الكائن مقرُّها بالدَّار البيضاء تحت عنوان:
"Denise Masson, ou le néon ne vaut pas la chandelle(1) et (2)"
نشر هذا المقال - الذي سنستخدم بعض أجزائه في الفصل المخصص لشهادات الكتَّاب- بتاريخ 09 جانفي 2004، انظر الموقع: =

لم تكن ماسون كاتبةً بالمفهوم الاستشراقي، ولا مناضلة مسيحيَّةً تدافع عن ثوابت دينها، بل كانت، في عمقها الرُّوحي، تبحث عن الانسانيَّة في علاقة العالم بالله. عاشت في المغرب الأقصى على أمل أن تعيد اكتشاف نفسها، في علاقتها مع الإسلام، واللغة العربية، والدَّارجة المغربيَّة، أن تستشفَّ روحها طليقةً على جدران العمران المرابطي حيث أهازيج التَّصوف تـملأ الأرجاء، لم تكن علاقتها بالمغرب علاقة الإداري الفرنسي بالسُّكان الأصليين، إنَّما كانت علاقة تساوٍ بين من يبحث عن الله في المرضى والفقراء والمساكين وبين من كان يوحي لها في سلوكه البسيط والعميق معا بالنَّص الأكثر تقديساً لديه، وهو القرآن.

لقد أفنت عمرها في تمحُّص الثَّقافة الإسلاميَّة منذ أن نذرته لَهَا وهي طفلةٌ صغيرة بالجزائر. درست العربيَّة وتعمَّقت في النّص القرآني حتَّى توحَّد القرآن لديها في شكل جعلَ ترجمتَها له من أحسن التَّرجمات. ولعلَّ اهتمام جامع الأزهر بها واعتبارها النُّسخة الأقرب إلى معنى النَّص الأصلي لـخيرُ دليل على ذلك.

عاشت بالمغرب أكثر من خمسٍ وستِّين عاما، قرأت فيها لكثير من الكتَّاب كالأمير عبد القادر الجزائري، وأبي زيد القيرواني،

= http://aujourdhui.ma/culture/denise-masson-ou-le-neon-ne-vaut-pas-la-chandelle-1-5746

وانظر أيضا المرجع:

Jean-Pierre Koffel, "Denise Masson : paris 1902 -Rabat 1994", *in Les cahier d'Afrique du nord- Bibliographies*, n°12, Paris.

وإيفا دي ميتري مايروفيتش، وجلال الدين الرُّومي، والخطيبي، والرِّوائي إدريس الشرايبي، وغيرهم. ولقد سمحت لها هذه الفترة الطَّويلة أيضا بأن تقترب كثيراً من الإسلام، وأن تترجم القرآن من الباطن كما عبَّرت عن ذلك[1] خلافا لأولئك الذين يتأوَّلونه من وراء البحار. وصارت بفضل دراساتها المقارنة بين الأديان التَّوحيديَّة جسراً بين المسلمين والمسيحيِّين، بين إفريقيا وأوروبا، وبين الشَّرق والغرب.

وللتَّعريف بهذه الكاتبة، فقد اعتمدنا بشكل أساسي على رسائلها[2] التي عبّرت فيها عن مواقفها من الحياة بعفوية[3]، وهي

(1) D. Masson, *Les trois voies de l'unique*, éd. Desclée de Brower, Paris, 1983. p. 6

(2) Nicole de Pontcharra, *Mademoiselle MASSON, Lettres à un jeune homme*, Rabat, éd, Non lieu, 2009.

(3) نُشرت هذه الرسائل تحت عنوان "الآنسة ماسون .. رسائل الى شاب" من قبل الكاتبة والشاعرة والناقدة في مجال الفن، الروسية الأصل، نيكول دو بونتشارا وصدرت الطبعة عن دار النشر "نو ليو" (اللا مكان) في 144 صفحة. أقامت الكاتبة نيكول دو بونتشارا بـ"رياض دونيز ماسون" حيث تفرغت لكتابة هذا العمل، الذي يعد منجزها الأول حول "سيدة مراكش"، وذلك بطلب من المعهد الثقافي الفرنسي لمراكش ومصلحة التعاون والأنشطة الثقافية بالسفارة الفرنسية بالرباط. ويتمحور هذا العمل الأدبي (...)، حول المراسلات المتبادلة بين دونيز ماسون وأحد الشباب [المسمَّى] "ماركوس"، والتي ستنزع من خلالها مترجمة القرآن رداء التَّحفظ الصارم وتتحدث بطلاقة عن القضايا الروحية وعن مواقفها السياسية الشجاعة وولعها بالفن. والواقع، أن هذه المراسلات هي مستوحاة من أوراق وقصاصات ومذكرات وجدتها الكاتبة ببيت دونيز ماسون فأعادت تحويرها بما يشبه الرسائل الأدبيَّة. بينما لا وجود في الواقع لاسم ماركوس، فهو يعتبر كشخصيَّة خياليَّة الرَّابط الذي يشدُّ من تسلسل الرسائل وأحداثها.

رسائل نشرتها الكاتبة نيكول دي بونتشارا سنة 2009. كما اعتمدنا بشكل أقل على كتابها "باب مفتوح على حديقة مقفلة" لأنَّه مكتوب بطريقة لم تفضِ فيها دونيز بدرجة العفويَّة نفسها مقارنة بما أفضت به في الرَّسائل. أمَّا الفيلم الوثائقي[1] الذي يحمل عنوان "دونيز ماسون: سيِّدة مراكش"، الذي أنجزته ماري كريستين غومبار عام 2010 وأشرفت على تقديمه نيكول دي بونتشارا، فيعرض في مدَّة لا تتجاوز الخمسين دقيقة سيرة دونيز الذَّاتيَّة مركِّزًا على جوانب من عملها في مجال المقارنة بين الأديان.

وخلافا لما هو منسوخ على شاهدة قبرها بمراكش (ماصون)، وعلى الرَّغم من كون السِّين المنطوق في اسمها مفخَّمًا، فإنَّني رجَّحتُ كتابة لقبها بالسِّين لا بالصَّاد قياسا على ما تمَّ تبنِّيه من قبل مترجمين عرب إزاء أسماء شبيهة صوتيًّا من قبيل (Massignon) الذي يكتب على هذا النَّحو: "ماسينيون"، أو ببساطة على نحو: "أندريه ماسون" (André Masson) المصوِّر الفرنسي المشهور (1896- 1987). ولقد ورد لها ذكر بذيل الأعلام[2]

(1) Marie-Christine Gambart, *Denise Masson, la dame de Marrakech.,* Film documentaire, Une coproduction Croscendo films, KTO et CRFT, 2010.

لمشاهدة الفيلم الوثائقي، استخدم الرابط الآتي:
https://gloria.tv/video/HcUs2XyVZbLv3qfc3ATx4GGaM

(2) ذيل الأعلام: قاموس مترجم لأشهر الرجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ونشر في طبعته الأولى بدار المنارة سنة 1998 بجدة، انظر الصفحة 80.

لصاحبه أحمد العلاونة على هذا النَّحو أيضا مع حذف الواو في اسمها ليصبح دنيز. وعلى النَّحو نفسه أيضا من طريقة كتابة اسمها (ماسون) ورد لها تعريف موجز بمعجم أسماء المستشرقين لمؤلِّفه يحي مراد[1].

ولقد قسَّمنا الكتاب إلى أربعة فصول، فصل خاص بحياة الكاتبة وما أنتجته من دراسات علمية وثقافية لها علاقة بعلم الدِّيانات المقارنة، كما قمنا في هذا الفصل بتقديم عرض موضوعي لمؤلَّفاتها، أمَّا الفصل الثَّاني فركَّزنا فيه على أهمّ ما قدَّمته علميا وثقافيًّا، ولا بدَّ أن نلفت انتباه القارئ الكريم إلى الاهتمام الذي سنوليه في هذا الفصل إلى موضوع ترجمة القرآن الكريم نظرا لكونه من بين أهم ما قدَّمته الكاتبة خلال مسارها العلمي، حيث سنتطرَّق فيه إلى نقاط من بينها الدوافع التي نَحَتْ بها نحو ترجمة القرآن، منهجيتها، منطلقها الاجتماعي والعمراني، بُعدها التَّوحيدي الحضاري، الانتقادات التي وُجِّهت لها والرَّدُّ عليها، وسنورد نموذجا من دراسة أكاديميَّةٍ نقديَّة قُدِّمت عنها عام 2015، كما سنتطرَّق إلى مشكل لقب دونيز في علاقته بنشر ترجمة القرآن. أمَّا الفصل الثَّالث، فقمنا فيه بإيراد مختارات ممَّا كُتِب عنها، حيث أدمجنا شهادات لكتَّابٍ عرفوها عن قرب وأخرى لجرائد تابعت عن كثب مسارها

(1) يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2004، ط1، ص1012.

الثَّقافي والدِّيني. وسعينا في الفصل الأخير إلى تقديم مختارات من كتاباتها حيث ترجمنا مقالها المشهور الذي نشر بجريدة لوموند حول مسلمي أوروبا، كما قمنا بترجمة مقالها حول رؤيتها للجمال انطلاقا من النَّص القرآني وهذا المقال هو عبارة عن محاضرة ألقتها بمدرسة اللُّوفر التي تهتمُّ بتاريخ الفنون والحضارات وعلم الآثار والمتاحف، كما قمنا بترجمة جزءٍ آخر من كتابها "باب مفتوح على حديقةٍ مقفلة" تقارن فيه بين التأدُّب المغربي والفرنسي.

وفي آخر الكتاب، وضعنا ثبتًا بيبليوغرافيًّا يضمُّ أهمَّ أعمالها مع قائمة للمصادر والمراجع باللغتين بالإضافة إلى المواقع الالكترونيَّة التي اهتمَّت بالكاتبة.

د. الهواري غزالي

باريس بتاريخ 30 ماي 2018

الفصل الأول: حياة دونيز ماسون

1 - ولادة على جناح الفنِّ بين الرَّسم والموسيقى 1901 -1912:

وُلِدتْ دونيز ماسون -وحيدةَ والديها وأسيرةَ شغفهما بالفنون- في باريس يوم الاثنين 5 أغسطس 1901 الموافق لـ 19 ربيع الآخر 1319 لأبٍ يُدعى موريس ماسون، وهو محامي ولد سنة 1873 بهازبروك شمال فرنسا بمقاطعة مدينة ليل وتوفي بمراكش سنة 1947.

اِشتغل جدُّها الصَّحيح وهو الذي من جهة أبيها، في شبابه بائعًا متجوِّلًا للأقمشة، ثمَّ سرعان ما تحوَّل إلى بيع نبات الجنجل الذي يسمَّى أيضا: بحشيشة الدينار أو عشبة الدينار[1]. أنجب خمسة أولاد وبنتين. أمَّا جدَّتُها التي كانت متديِّنةً جدًّا، فلقد تُوفيَّت لما كان موريس والدُ دونيز -وهو أصغر إخوته- لا يزال صبيًّا. قام جدُّها عندما صار غنيًّا ببناء كنيسة، كما شيَّد مدرسة زاول فيها دراستَه أحد أهمِّ المستشرقين الفرنسيِّين المشهورين وهو أندري داميرسمان[2] الذي عُرِفَ بتأسيسهِ عام

(1) وهو نبات ينحدر من الفصيلة القنبيَّة، يستخدم في صناعة الجعَّة.

(2) للاطلاع، صدر مقال لروجيه لوتورنو سنة 1967 يتحدث فيه عن سيرة هذا الرجل. =

1926 معهد الآداب العربية الرَّاقية بتونس[1]، حيث أصدر العدد الأول من مجلته سنة 1937. وهي مجلة ما فتئت تجمع شمل الباحثين والمختصِّين والعلماء من المسلمين وغيرهم.

عمل جدُّها الرحمي، الذي هو من جهة أمِّها، صانعا للمسامير، بينما كان أبوه مالكا لفندق.

أمَّا أختا أبيها فتكبرانه بنحو عشرين سنة وهما متزوِّجتان وتسكنان على بعد ساعة سيرًا بطيئاً إلى هازبروك.

لقد أنهى أبوها دراساته بنيله شهادة الدكتوراه في القانون، لكنه كان مهووسا بالفن التَّشكيلي. ويُعدُّ من بين المكتشفين الأوائل للمدرسة الانطباعيَّة التي كانت مصدر اهتمامه وشغفه بها على الرَّغم من مقت المجتمع الفرنسي لها آنذاك، فكان استباقه إليها جليًّا حتَّى قبل أن يَذيعَ صيتُها في عالم الفن التَّشكيلي. تقول عن أبيها: إنَّه أورثها حبًّا من خلال الفن، وأنَّ هذا الحبَّ في داخلها يتمازج كما تتمازج الأشكال والألوان، هو فنٌّ التأليف الذي يبدي في الوقت نفسه عن رغبة حقيقيَّة للحياة[2]. لقد أولجها أبوها عالم جمال الأشكال؛ عالماً كان فيه

= انظر:

Le Tourneau Roger. A. Demeerseman, *La famille tunisienne et les temps nouveaux*. In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°4, 1967. pp. 195-197.

(1) Institut des Belles Lettres arabes, l'IBLA.

(2) والمقصود بالتَّأليف هنا هو الجمع بين أصلين في فنٍّ واحد: تقول مثلا: "لقد أوعز لي أبي بذلك التَّأثير الإسباني على ماني، فللوحة الأولامبيا=

يناديها وهي في عمرها الثاني عشر بـــ"جميلتي". كان همُّه الكبير أن ينقل إلى ابنته إحساسه بالفنِّ، ولذلك، علَّمها أيضاً النَّقش والرَّسم حتَّى غدت تلك الطفلة التي تنساق نحو رغبة أبيها "لتعصر -كما يقول المثل- في قلبها المناظر الطَّبيعية لإيل دي فرانس"[1]، المناظر التي كان يحبُّها أبوها. كما منحها من ثقافته الواسعة الشيء الكثير، ففي الخامسة عشرة من عمرها دفعها لقراءة باسكال وتاريخ بوسي العالمي. لقد عاشت دونيز ممتنَّة له طوال عمرها[2].

على هذا النَّحو، فتحت دونيز عينيها على لوحات هؤلاء الرَّسَّامين الانطباعيِّين الذِّين كانوا في أغلبهم أصدقاء لأبيها؛ فَتَحَتْهُما على لوحة المناظر الطبيعية للرسَّام بودين، يوهان جونغكيند، ليبين، سيسلي، على لوحات ليبورغ، إرنست لوران، هنري مارتن، سيدانير، رينوار في رسمه لـــ"الطريق إلى فرساي في لوفيسيان 1895، مونيه في الهزيمة، 1880، في فِيتُويْ أثناء الصباح، 1901، وفي برلمان لندن، 1904.

= للفنَّان ماني ولوحة "ماجا ديسنودا" للفنان غويا علاقة تربطهما معا". فالفنُّ الفرنسي والاسباني معاً إنَّما اجتمعا تأليفا وفق رأيها في عملٍ فنِّيٍّ واحد. هذا البعد هو الذي سوف يظهر تأثيره فيما بعد من خلال تأليفها بين الدياناتين المسيحية والإسلام عن طريق ترجمة القرآن.

(1) Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé: valeurs fondamentales et traditionnelles d'une société en pleine évolution,* éd. Desclée de Brower, Paris, 1989.

(2) Marie-Christine Gambart, *Denise Masson, la dame de Marrakech.*

ويعود إلى دونيز ماسون الفضل في موافاة متحف الفن التَّشكيلي لمدينة ليل الفرنسية بهذه المجموعة الكبيرة من الأعمال الفنيَّة وبغيرها، قطعاً لوعد أبيها السَّخي الذي نذره سنة 1921 بأن تعود مجموعته الرائعة إلى متحف مدينة ليل بعد وفاته[1].

أمَّا أمُّها التي كانت عازفة بيانو ماهرة جدًّا لموسيقيين كبار، مثل ديبوسي، فوري، ورافال، فلقد كانت تجبرها من جهتها على تعلُّم آلة البيانو مدة ساعتين في اليوم. كثيراً ما كانت تنتقد سقطاتها في اختيار النَّغمات وتوبِّخها بصوتٍ عال. تقول دونيز عن هذا: ".. كنت إثر ذلك أسقي البيانو بدموعي وأنقبض مخافة السقوط في مطب الخطأ مرَّة أخرى، لكن ذلك لم يكن ليزدني إلا أخطاءً. عشت بقيَّة عمري بهذا الجرح الذي لم يلتئم أبداً[2]".

اكتشفت الموسيقى الغريغوريَّة (الدِّينيَّة القروسطيَّة) سنة 1918 بفضل الدِّورات التي كان ينظمها البينديكتون المشهورون، وهو ما سمح لها بالتَّوجه المباشر نحو آلة الأرغن. وعندما قضت فصل الشتاء في الجزائر، حيث كانت لا تزال فتاة يافعة، كانت تذهب إلى قرية تدعى فوندوق تقع على بعد ستة

(1) Oursel Hervé, "La donation Masson à Lille: œuvres impressionnistes", *in La revue du Louvre et des musées de France*, Paris, 1977. In-4, agrafé sous couverture illustrée en couleur, 18 pp. Tiré à part, extrait du numéro 1 - 1977

(2) Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé*, p. 212.

كيلومترات من المزرعة، وذلك لمراجعتها بعض "المنشدين" الذي كانوا يتدرَّبون على تقديم ترانيم دينيَّة كان من المقرَّر إجراؤها الأحد التالي. من ههنا، ولدت حاجتها إلى الكتابة والأدب.

سيكون لموضوع الرَّسم والموسيقى تأثيرٌ كبير على علاقتها بالعالم وبالآخر، وسيحلُّ هذان الفنَّان فضاءً كبيرا في مجال تحليلها للفكر الإسلامي وفي طريقة صياغتها للغة العربية.

ولقد كان للمتصوِّفة ماري بيتي -التي لم يكن يعرفها أحد والتي تحوَّلت فيما بعد إلى ماريًّا تيريز- تأثيرٌ كبيرٌ على حياتها إذ كانت من بين أوَّل قراءاتها وهي في الثَّانية عشرة من عمرها. تتقاسم وإيَّاها مسارَ حياة يكاد يكون واحدا. ولدت ماري بِيتِـي الملقَّبة بـماري دي سانت تيريز سنة 1623 بهازبروك الواقعة شمال فرنسا بمنطقة الفلامون، وهي المدينة نفسها التِّي ولد فيها والد دونيز ماسون كما ذكرنا ذلك سلفا. ألَّفت سيرة حياتها التي طبعت بعد وفاتها بعنوان "حياة ماري بيتي"، كما صدرت لها مجموعة مراسلات مع شيخها الرُّوحي ميكائيل دي سانت أوغوستين. وافتها المنيَّة عام 1677. لا تقرُّ دونيز بالمطلق في كون ماريا بيتي هي من دفعتها إلى اقتسام التَّجربة، لكنَّ المتأمِّل في وجوه الشَّبه بينهما يدركُ حتماً أنَّ المسار واحدٌ وإن اختلف الشَّخصان.

إضافةً إلى ذلك، فلقد تلقَّت دونيز تعليماً برجوازيًا[1]، لاسيما من خلال اطِّلاعها على الآداب الكلاسيكيَّة، اللغة اللاتينيَّة والموسيقى، حتى تخرُّجِها بشهادة الكفاءة في التَّعليم الابتدائي.

(1) إلاَّ أنَّ هذا التَّعليم تماشى والتغيُّرات الجذريَّة التي عاشتها فرنسا بعد إعلانها عن علمنة الدَّولة واستبعاد الدِّين المسيحي عن أروقة الحكم. فلقد كان اهتمام الفرنسيِّين منصبًّا أوَّل الأمر بعد مرحلة الثورة الفرنسيَّة على لائكيَّة التَّدريس، حيث قام جيل فيري وزير الشؤون العامَّة عام 1880 باتِّخاذ تدابير انتخابية لصالح مجانية التَّعليم الإجباري واللائكي، أين تمَّ طرد رجال الدِّين من المؤسسات التربوية ليحلَّ محلَّهم رجال التَّعليم اللائكي. أمَّا قانون فصل الدِّين عن الدَّولة عام 1905 الذي هندسه إيميل كومب والذي يعترف بمبدأ "كلٌّ يعمل كما يشاء ببيته"، فإنَّه تمَّ بموجبه التَّنازل عن البناءات التي تعتبر ملكا للدَّولة والمحسوبة على المسيحيَّة لصالح العبادات. وفي عام 1937، منعت حكومة بلوم التَّشهير الديني (الدَّعوة الدِّينيَّة) داخل المدارس على الرغم من بقاء ما يشير من ملامح الثِّياب إلى الانتماء الديني.
وعلى الرَّغم من كون المعارك الدَّائرة بين العلمانيين والكنيسة الكاثوليكية أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين قد انحصرت بشكل واضح في فرنسا، إلا أنَّها لم تكن على هذا التأجُّج بالخارج. فقد استخدم العلمانيُّون الدِّين المسيحي كوسيلة لتمكين فرنسا من فرض سيطرتها على المستعمرات، لاسيما في ظلِّ التَّنافس الاستعماري بينها وبين دول أوروبيَّة أخرى. لذلك، فجلُّ من كانوا محسوبين على السياسة والجامعات والعسكر إنَّما كانوا يستخدمون التبشير المسيحي بشمال إفريقيا. وفي هذا السياق، يمكن للقارئ أن يعي بشكل واضح أسباب اتخاذ دونيز قرارا بالهجرة إلى المغرب، ليس بدافع الهروب من المعارك الطَّاحنة بين المسيحيِّين والعلمانيِّين بفرنسا وحسب، وإنَّما أيضا لتجد متَّسعاً للبحث عن جوهرها الروحي بشكلٍ عميقٍ متأمِّلٍ وهادئٍ خارج هذا الصِّراع السيَّاسي الذي يكاد لا ينتهي.

لم تتخلَّ دونيز عن فترة طفولتها، فكثيرا ما كانت تستعيد –وهي في عمرٍ متقدِّمٍ جدًّا– ذكرياتها بين الألم والفرح كلَّ صيف عندما تقيم في شقَّة والديها بشارع لينوفارسيتي (شارع الجامعة) المحاذي لنهر السِّين جنوبا، فأجواء "الحيِّ اللاتيني والطَّريق المؤدِّي منه إلى كنيسة سان سيبليس يأسرانها بين جدران ماضيها، باريس هي الذِّكرى، هي ألم الذَّات في تشرُّدها الأوَّل وهروبها إلى حيث كان الإدراك لا يزال يبحث عن وتدٍ روحيٍّ خارج العالم الغربي. كان الإسلام هذا الوتد الذي أخرجها من حزنها وآلامها..هو تماما ذاك الاحساس نفسه الذي كان يراودها وهي تتجوَّل بمدينتها الثَّانية جنـوب نيس بيـن كـــاب فيـرات (cap ferrat) وفيلا سانتو سوسبير (villa sai) لجون كوكتو[1] التي يسميها أيضا بالفيلا الموشومة. باستثناء هواء البحر الأبيض المتوسِّط الذي كان يبعث في داخلها تاريخ عمالقة الفن الذين أقاموا في هذا المكان، فإنَّ دونيز لم تكن تملك مكانا آخر تفضي فيه إلى نفسها سوى مراكش.

2 - الانتقال إلى الجزائر:

تردَّت صحَّةُ دونيز في عمرها العاشر، فانتقلت بصحبة أبويها عام 1912 إلى الجزائر للإقامة بالملكيَّة التي اكتسبها والِدا أمِّها

(1) جان كوكتو شاعر فرنسي وافته المنيَّة سنة 1963. كان يقيم بفيلا سميَّت باسمه أيضا وهي بيت يطلُّ على البحر الأبيض المتوسط، تتخل جدرانَهُ نقوش ورسوم تشكيليَّة حديثة، تم تصنيف الفيلا ضمن قائمة المباني التَّاريخيَّة سنة 1995.

على مقربة من قرية فندوق، وهي قرية تقع على بعد 32 كيلومتر شرقي الجزائر العاصمة، بناها العثمانيُّون بالجانب الشرقي من سهل متيجة، على قدم أحد آخر قمم جبال الأطلس التي تهيمن على وادي حميز (غير بعيد عما يعرف اليوم بسدِّ الحميز قرب خميس الخشنة). تمَّ - زمنَ احتلال الفرنسيِّين للجزائر- تخصيصُ هذا المكان للمعمِّرين بعد تهريبهم من مدن كالبليدة، بوفاريك والقليعة وإخلائها تماما منهم حمايةً لهم من هجمات جيوش الأمير عبد القادر المتكرِّرة، وتخفيفاً من عبء الـمَهَمَّة العسكريَّة الفرنسية آنذاك. وبـموجب مرسوم 14 أكتوبر 1844، تقرَّر توزيع اثني عشر ألف هكتار من هذه الأراضي على مائة وخمسين عائلة أوروبية[1] حوَّلتها فيما بعد إلى أراضي لزراعة العنب الموجَّه لإنتاج النبيذ.

عاشت دونيز في كنف هذا المكان وهي فتاةٌ مقبلةٌ على الحياة، تفتَّحت قريحتها الأدبيَّة على سكون جبال الأطلس التي تسمَّى أيضا بجبال الخشنة[2]. وهي جبالٌ يسودها مناخُ البحر

(1) مقتطف من مقال نشر بجريدة صدى الجزائر بتاريخ 28-8-1913، يستعيد فيه الصحفي غاستون مارغيت ذكرى صدور قرار بتعمير قرية فندوق.
Gaston Marguet, création de la commune de Fondouk (28 Aout 1851), souvenirs algériens, in *Journal Echo d'Alger*, 08/08/1913.

(2) جبال الأطلس اسمٌ لسلسلة جبلية تمتد عبر الشمال الغربي لقارة إفريقيا على مسافة تقدَّرُ بنحو 2.500كلم عابرةً كلاًّ من المغرب والجزائر وتونس. تبلغ أعلى قممها 4.156م وهي قمة طوبقال جنوب غرب المغرب. يحد=

الأبيض المتوسِّط المعروف بلطافة جوِّه وبمعدل حرارة سنوي يقدر بـ 18 درجة مئوية على خط الشَّريط الساحلي[1]. عاشت بينها دونيز (على فترات متقطِّعة[2]) ما يقارب الثَّمان سنوات وهي فترات كانت كافيةً لتحفر في داخلها هوَّة عميقة من الأسئلة لم تزدها إلا تعلَّقاً بالمكان. تحدَّثت في رسائلها عن هذه التَّجربة المحوريَّة التي سطَّرت مسار حياتها بشكل حاسم وجعلتها تعيش بقيَّة عمرها على وقع أمطار جبال الخشنة وهي تشتمُّ عبير تراب مراكش المخلوط بالمطر الأول غير بعيد من جبال الأطلس الكبير. تقول في رسالتها المؤرَّخة بخريف 1963 ما يلي:

= سلسلة جبال الأطلس كل من البحر الأبيض المتوسِّط شمالا والمحيط الأطلسي غربا والصحراء الكبرى جنوبا، وسكان جبال الأطلس ذوو غالبية أمازيغية في الأغلب الأعم. أمَّا الخشنة فتقع شمال الجزائر ضمن ما يسمَّى بالأطلس التَّلي بين جبال جرجرة وجبال البليدة التي كانت تسمَّى ايضا بجبال التيطري. وقد استغلَّها الاستعمار الفرنسي في استخراج المعدن الخام من مغارات هذه الجبال لاحتوائه على كمية من معدن المرو وأكسيد الحديد والهيماتيت (الشَادَنَج أو حَجَر الدِّم) والبيريت (المرقشيتا أو الذهب الزَّائف) والريوليت والميكاشيست وتعدُّ أعماق "مغارات سوق الحد"من أهم المناطق احتواءً على المعادن الأمر الذي دفع الاستعمار الفرنسي لتحويلها إلى منجم هام عرف بمنجم ثنيَّة بني عائشة. انظر:
Paul-F Chalon, *Richesse minérales de l'Algérie et de la tunisie,* éd., H. Dunod et E. Pinat, Paris, 1907.

(1) وتتراوح كمية الأمطار المتساقطة سنويا بين500 إلى 1300ملل بداية من شهر أكتوبر إلى غاية شهر مارس.

(2) Jean-Pierre Koffel, "Denise Masson : paris 1902 -Rabat 1994".

"في الجزائر، حيث كان أبي يعتني بممتلكات صهره بين سنتي 1912 حتى 1925 في انتظار أن تتعافى صحتِّي، وُلدَت رغبتي العارمة في الأرض الافريقية، في قيظها، في أزرق سمائها الصافي، في فضائها، في بساطة الحياة فيها، هناك، تطوَّر لديَّ اهتمامٌ بالعلاقة العادلة التي تربطُ السيِّد بالعامل. بدون شكٍّ، كنت محظوظة جدًّا حيثُ لم أُقِمْ لدى معمِّرين متعجرفين. كنَّا نسمع أنا وقريباتي أغاني الشَّعبي، الأندلسي. كنَّا نمعن في الرقص بزفاف الزَّهراء، أكثر بنات سي أحمد جمالا، كانت ترتدي، وهي مكتحلة الجفن، قفطانا مزركشاً بالحرير الأحمر. كم كان القلب متَّسعاً للفرح الذي اقتسمناه معاً. كنَّا نتواشجُ في الرَّقص، في الأغاني التي نستعيدها معاً. لم تكن تتحرَّك الزَّهراء، بل كانت تمثالا مزيَّناً. كنَّا نحتفي بالحلويات، بالشاي المعطَّرِ بالنَّعناع، بالأسياخ وبالمئات من الأطباق اللَّذيذة".

سمحت لها إقامتها أيضاً باكتشاف الجانب الرُّوحي والاجتماعي للجزائريِّين الذين لم يكونوا على قدر كبيرٍ من الكفاف بقدر ما كانوا على اكتفاءٍ بالقدر وعلى تسليم بالأمر الواقع، تقول:

"لقد حزَّت في نفسي رؤيتي للمسلمين الجزائريِّين وهم يصلُّون، يعينون الفقراء، ويحيون إيمانهم رغبةً في تعميق معرفتي بالإسلام، دون أن يهزَّ ذلك شيئا من إيماني بالمسيح الذي يعيش في داخلي، كنتُ معجبةً إعجابا كبيراً بإيمان هؤلاء الأشخاص الذين أتعرَّفُ عليهم، وبطريقة رؤيتهم للمقدَّس. في

الإسلام غرابة ما كنت في حاجة ماسَّة للدخول فيها، ذلك أنَّ الرِّجالَ منهم والنِّساء الذين يعيشون دينهم يوميًّا كانوا على قربٍ مني. إنَّ تصوُّري الخاص لعلاقة الانسان بالله سمحت لي أيضاً أن أكون في علاقة مع العالم ومع الآخر[1].

لا يمكننا -من دون شكٍّ- أن نحكم على النِّظام الكولونيالي وفق تصرُّفات بعض الأفراد اللاانسانيِّين، إلا أنَّني اكتشفت عكس ما كان وأنا تلك الطِّفلة البريئة، إذ تقدَّم العمر بي تحت انتداب فرنسا للمغرب، قسوة أولئك الذين رفضوا تحرُّر الشعب المغربي[2]. في سفري بين فرنسا حيث ولدت وبين الجزائر وتونس، نمت رغبة الانتماء إلى أرضٍ غير أرضي الأولى. لقد تبلور هذا الانتماء بالمغرب، أين كان ينبغي أن أُزرَع لتشربَ جذوري ههنا مياه روح جديدة. لم يكن قرارا عقلانيًّا بقدر ما كان حدساً. كان ذلك بمثابة دنُوٍّ من ماهيَّة ذات، من جوهر أمّة، ومن روح ثقافة، الدنوُّ منها يسمح باكتشاف الذَّات في بعدها الأكثر كونيَّة[3]".

فِي ظلِّ تعافيها، وقريبا من الثقافة المغاربيَّة المشبعة بالقيم الدِّينيَّة التي اكتشفتها دونيز بأرض الإسلام، وفَّرها الحظُّ لقدرٍ نأى بها عن أحداث أوروبا السيَّاسيَّة وصراعاتها العسكريَّة.

---

(1) Nicole de Pontcharra, p.22.

(2) المرجع نفسه، ص 23.

(3) المرجع نفسه، ص26-27.

فخلاف ما عاشه أقرانها، لم تعش دونيز ويلات الحرب العالميَّة التي نشبت بين القوى الأوروبية عام 1914 وانتهت عام 1918 بعد أن أسفرت عن مقتل أكثر من تسعة ملايين محارب فيما احتشد فيها أكثر من ستِّين مليون أوروبي. كانت أصداء هذه الحرب تصلها تباعا وهي بين شعاب الجبال الأطلسية التليَّة. في رسائلها إلى ماركوس[1]، يغيب حديثُها عن هذه الحرب مقارنةً بحديثها عن الحروب الأفغانيَّة أو المقاومة الفلسطينيَّة، لا تعطي انطباعا ولا تعلِّق عليها، كأنَّ في ذكرى هذه الحربِ زوبعةً إذا أيقظتها تهاوى داخلَها الكثير.

3 - من حياة الدِّير إلى التَّمريض (1925 ـ 1929):

لم تناهز دونيز بعد الأربع وعشرين عاماً حتى صُدمت بطلاق والديها، كان قدراً أن تظلَّ هذه الصَّدمة ناراً في دواخلها

(1) ولد ماركوس -هذه الشَّخصيَّة المتَخَيَّلة- بتاريخ 16 سبتمبر 1933 بقرية صغيرة تدعى فوكليس بإقليم يقع شمال مرسيليا بنحو 120 كيلومتر. بعد أن تلقى تعليمه الابتدائي بآكس أون بروفانس، توجَّه نحو باريس ليواصل تكوينه بالاينالكو وهو "المعهد الوطني للغات الشرقية" أين شهد العديد من محاضرات شارل بيلا وريجيس بلاشير. اهتمَّ بالتَّصوُّف حيث نشر سنة 1977 بدار سكينة للنَّشر (Les éditions de la Sakina) كتابا حول المتصوِّفة الشهير عبد الرَّحمن الدَّرقاوي وهو كتاب لم يعد طبعه من جديد. تلخَّصت حياة ماركوس في حالة من البحث الرُّوحي المستمِّر بين آسيا الوسطى والمغرب. سُلِّمت كتاباته التي لم تنشر حتَّى الآن إلى الأرشيف الفرنسي لما وراء البحار. توفي فجأة بزاوية عبد الرحمن بابا ببيشاور بباكستان بتاريخ 22 أوت 1991.

حتى انطفأت بانطفاء شمعتها الأخيرة. لعلَّ هذا ما جعلها وقد استشرفت هذا الطَّلاق أن تستبق الألم في سنوات العشرين وتجرِّبَ -وكلُّها إيمانٌ بدينها- حياةَ الدِّير، بيد أنَّها لم تلبث حتَّى تحوَّلت إلى مجال التَّمريض. كان هذا التخصُّص بمثابة استكمال لثقافتها البرجوازية الكاثوليكيَّة آنذاك، والتي تدعو إلى صلة القريب، وخدمة من هم حواليها، كما كان سبيلاً إلى انضمامهاَ إلى أفكار الآباء البيض، إلى أفكار إخوان فوكو، وصغار إخوة يسوع في آخر المطاف.

في رحلتها إلى تونس، بينما خاضت أولى تجاربها في قطاع التَّمريض عام 1927 بمستشفى "المبشِّرات الفرونسيسكانيَّات بـماري"[1] اللَّواتي نصحنها بالذَّهاب إلى الرِّباط لجسِّ النَّبض هناك، ارتسمت آخر ملامح تلاحمها بالإسلام وإفريقيا، وانقطع بها الشُّكُ إلى يقين، وتحوَّل التردُّدُ إلى عزم قاطع.

وقبل ذهابها للعمل بالمصلحة الاستشفائيَّة ضدَّ داء السُّل بالرِّباط عام 1929 عادت إلى باريس لتنضمَّ كطالبة إلى مدرسة تكوينيَّة مختصَّة في إسعاف جرحى الحرب، المتواجدة بشارع بوبليي بباريس[2]. نالت بعد سنتين من التَّكوين شهادة التَّمريض

(1) حركة مسيحيَّة ذات أهداف اجتماعيَّة تعمل على نشر الإخاء والتَّضامن مع الفقراء، ولدت هذه الحركة في القرون الوسطى برعاية المتصوِّف فرانسوا داسيس الذي اشترط اتِّحاد النَّفس بالمسيح المصلوب لقاءَ تطهُّرها.

(2) Place de peupliers à Paris.

حيث صار بإمكانها أن تصبح في خدمة المغاربة[1] كما جاء في مذكِّراتها.

4 - الانتقال إلى المغرب 1929:

لم تقم طويلا بالرِّباط، فلقد تمَّ تعيينها سنة 1930 مديرة للمصالح الاستشفائيَّة لمعالجة داء السُّل بالمدينة القديمة لمراكش. ونظراً للظروف المهنيَّة الصَّعبة[2] انسحبت دونيز ماسون من حياتها المهنيَّة كممرِّضة نهائيًّا، وانقطعت بفضل ثراء عائلتها إلى عالم الدِّراسة والبحث في موضوع المفارقات بين الدِّيانات التَّوحيديَّة الثَّلاث وتقاطعاتها.

وبما أنَّها كانت تريد العيش بالقرب من البُسطاء، اقتُرِحت عليها شقَّة تقع قرب الكنيسة بمكان يسمَّى "درب ناقوس"، والنَّاقوس كما يدلُّ الاسم عليه هو جرس الكنيسة الذي يدقُّ للصَّلاة. كانت دونيز سعيدةً جدًّا بهذه الشِّقة رغم أنَّها لم تكن تحتوي على صنابير ماء. ومع ذلك، استطاعت هذه البرجوازية أن تتكيَّف سريعا مع الوضع بما أنَّها نذرت نفسها للفقر والتواضع. سمح لها هذا المكان بأن تجد فيه بين سكَّان المدينة القديمة القيمتين الأكثر أهمية بالنِّسبة إليها: الجمال والأصالة.

---

(1) Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé*, p. 215.

(2) المرجع نفسه، ص217-218.

تقول: "أتذكَّر دُوَّار[1] غْرَاوا أين أقمت لأوَّل مرّة بمراكش سنة 1930[2]، مكان لا يبدو مريحا لأوروبيَّةٍ مثلي. الشَّوارع الـمتربة التي تكتنفها جدران عالية، منازل أرستقراطيَّة كتومةٌ على حدائقها، دروبٌ مظلمةٌ حيث الأطفال يستقبلونني غالبا بالحجارة وهم يرمونني بها. أحببت هذا المكان الرَّهيب لجماله الصَّارم. هو مكان الفقراء الذين يناولهم سكَّان الحيِّ كل يومٍ خبزاً ووعاءَ حساء".[3]

وفي الواقع، فإنَّ إقامتها بمفردها بدرب غراوا قد صدم الكثير من المغاربة طيلة سنوات عدَّة، فمن السّيِّئ للغاية أن تعيش امرأة بمفردها[4]. غير أنَّ وحدتها لم تكن نابعة من شعورٍ بالكبرياء أو النُّفور من النَّاس بقدر ما كان شعوراً بوحدةٍ تعوَّدتها. لقد ذهبت إلى حدِّ اعتبار من ازدرى من الفرنسيّين مقامَها بين المغاربة في حيٍّ شعبيٍّ بالمتصنِّع، فمن يعش مِنْهُم في حيّ المدينة الأوروبيّ إنَّما لا تربطه في رأيها أيَّة صلة بالواقع المغربي.

---

(1) دوَّار اسم يطلق عند المغاربة على القرية الصغيرة النَّائية.

(2) هناك تضارب في تاريخ الاقامة بدوار غراوا، فبينما نجد بالرسائل المنشورة لها من قبل نيكول دي بونتشارا أن الاقامة كانت بعام 1930، نجد غير ذلك بمذكراتها الخاصة المنشورة في كتاب "باب مفتوح على حديقة مقفلة، حيث وضعت سنة 1932، انظر الصفحة 218.

(3) Nicole de Pontcharra, p. 20

(4) Marie-Christine Gambart, *Denise Masson, la dame de Marrakech*.

5 - دراسة اللّغة العربيَّة:

قرَّرت دراسة اللغة العربية وذلك بتسجيلها بمعهد الدراسات العليا المغربية بالرِّباط. سمح لها توقيت عملها وهي موظَّفة بالمستشفى بتعلُّم اللهجة المغربيَّة لسنة واحدة بمعهد الدراسات العليا الذي سلَّمها بدوره، وبعد مرور ثلاث سنوات، شهادةً في العربيَّة الفصحى، وهي شهادة أجبرتها على تعلُّم النَّحو العربي القديم. ساهم اندماجها في المجتمع وفي النُّصوص على بلوغها بعد سنوات درجة أحسَّت فيها -كما تقول- بأنَّها صارت تطفو بخفَّةٍ على صفح النَّص القرآني، الذي حملها وأوجد له داخلها صدى لغتها الأولى. لقد استطاعت في آخر المطاف أن تقدِّم لأولئك الذين لا يمتلكون ناصية العربية، مفردات وجملاً تنطوي على مفاتيحَ من شأنها بناء جسور وتعبيدُ سبُلٍ للتَّضامن؛ مفردات وجملاً تنتظم بفضلها القصيدة -كما تعبِّر عن ذلك في رسائلها-، وينسابُ كلام الخاطر ليرنَّ صداه كنشيدِ حبٍّ مطرب[1].

إنَّ عربيتها ليست بالعربيَّة الأكاديميَّة التي لا بدَّ أن يستقيم نحوُها في ذهن الطَّالب قبل أن يتعلَّم الكلام بها، وإنَّما في العربيَّة روحٌ التقطتها دونيز من خلال حواراتها مع البسطاء والفقراء جعلتها تصل إلى النَّص القرآني بالعمق الذي يناضلُ الوحيُ من أجله مدافعاً

(1) Nicole de Pontcharra, pp. 28-29

عن قيم المساواة والعدالة. وسينعكسُ تعليمها الـمُبسَّط للعربيَّة على ترجمتها التي لا تأخذ بعدها الدَّلالي من المفردة القرآنية ذاتها بقدر ما تأخذه من علاقة القرآن بالنُّصوص المقدَّسة لاسيما فيما يتعلَّق بالأخبار والقصص والآثار.

6 - الاستقرار بدرب زمران 1938:

استقرَّت دونيز ماسون بشكلٍ نهائيٍّ بدرب زمران بمراكش عام 1938، في بيتٍ تقليديٍّ يسمَّى بـ"الرِّياض"[1]، وهو البيت الذي لا يزال إلى غاية يومنا هذا يحمل اسم صاحبته تخليدا لذكراها. وكما أهدى إليها أبوها شققا تقع بباريس وبمدينة فيل فرانش سير مار[2] التي كانت تقضي فيها عطلها الصَّيفيَّة، فكذلك أهدت لها أمُّها هذا الرِّياض الذي سمح لها فيما بعد بممارسة العزلة التَّأمليَّة داخل وسط عامرٍ بالسُّكان المسلمين. كان هذا الرياض ملكا لرجلٍ حافظٍ للقرآن اسمُه الحفظي، وبقي البيت حاملا لهذا الاسم: رياض الحفظي. ساهمت دونيز فيما بعد بإعادة ترميمه وتهيئته كما أضافت طابقا علويًّا ليكون مساحة

(1) أهدت دونيز ماسون -فيما بعد- كلَّ ممتلكاتها بما فيها الرِّياض إلى الدَّولة الفرنسية التي بادرت فيما بعد بخلق مؤسَّسة تحمل اسم دونيز ماسون تخليداً لذكراها؛ وهي مؤسسةٌ تسمح بفضل مداخيلها السنوية بترميم الرياض وضمان حركته كمتحف وفضاء ثقافي ويقوم بأعمالها المعهد الفرنسي بالمغرب.

(2) يكتب اسم المدينة فرنسيا على هذا النحو: Villefranche sur mer

خاصة بها لغرض الكتابة والتَّأليف. كما جلبت الأرغن ووضعته في زاوية من زوايا هذا البيت: "كنت محظوظة بنشأتي في عائلة مؤمنةٍ وثريَّـة، يسكنها إحساسٌ مرهفٌ بالفنِّ. بفضلها تمكَّنتُ من اقتنـاء ريـاض الحفظي"[1]. إنَّه "البيت الذي أضحى كما يقول سمير لطفي "برجها العاجي"، ومكَّنَهَا من عيش حياتها "الغرائبية"[2].

تعبِّر هذه الغرائبيَّة عن إحساس دونيز بالغربة وسط فضاءٍ مختلف، كما تعبِّر أيضاً عن غربة المكان في عصر يختلف عنه عمرانُه بناءً وثقافةً. إلاَ أنَّ دونيز استطاعت أن تحوِّل غربة الذَّات والمكان معاً إلى نشيدٍ تُرجِّعُهُ ثقافتان؛ عربية وغربية، ودينان؛ إسلامي ومسيحي. وسنتبيَّن هذا التَّأليف عندما تعقد مقارنة بين المكان والموسيقى، وبين جداول التَّكوين وأنهار الجنَّة حيث التَّلاقح الثَّقافي الغامر والتَّمازج الحضاري المهيب.

---

(1) تقصد اسم البيت الذي عاشت فيه بمراكش.

(2) سمير لطفي، مراكش. تكريم دونيز ماسون: عاشقة المغرب، هسبرس، جريدة إلكترونيَّة، المغرب، 16 فبراير 2010. وجاء في المقال نفسه: "يعتبر الرياض المتواجد بدرب زمران بالمدينة العتيقة لمراكش، والذي قضت به دونيز ماسون أزيد من ستين سنة، من الفضاءات الثقافية الأكثر شهرة بالمدينة الحمراء، وعنوانا للقاء بين العديد من الفنانين والمثقفين، ما يجعله يسهم بالتالي في الإشعاع الثقافي للمدينة. ويُسيَّر هذا الرياض الذي تم تفويته للدولة الفرنسية، من طرف المعهد الفرنسي، ويستقبل فنانين من أجل الإقامة والتفرغ للإبداع، كما يحتضن بعض التظاهرات المفتوحة في وجه العموم، مثل الندوات الدورية "فنون بالرياض" وملتقيات دولية، وورشات في الفن التشكيلي".

تتحدَّث عن هذا المكان قائلةً[1]: "كان لي دائماً حبٌّ لحدائق المسلمين، للعرصات المغلقة، للسَّواقي. إنَّ بيتي- الحديقة أو حديقتي-البيت الشبيهُ بها يغدو كقصر الحمراء، فأجزاؤه الأربعة المقسَّمة على شكل صليب تزخرُ بزهر العسل، بالآس، بالغار، بالبوغانفيليا، وبشجر النخيل. أمشي فيها بقدمين حافيتين وأنا كلِّي إصغاءٌ إلى موسيقى ماهلر. الطيور والعصافير والشَّحارير المعتادةُ تردُ الرَّوضَ لتسقي عطشها من كفِّي، كأنَّما تسقيها الجداول الأربعة المتدفِّقة[2] التي يتحدَّث عنها التَّكوين، أو الأنهارُ غير الآسنة التِّي يصفها القرآن"[3].

في وصفها لرياض الحفظي، تتجلَّى علاقة دونيز بالضَّوء، بنغمات العصافير الهاربة من كلح الضُّحى الصَّيفي إلى نافورتها، بمنابع الحياة التي تفيض كجداول رقراقةٍ نحوها، بما يجعلها تعتقد أنَّها في ترجمة القرآن وفي كتابتها عن الدِّيانات الثَّلاث، هناك جنَّةٌ ما تحيط بها، جنَّة من التَّرانيم تحرِّكُ في قلبها عاطفة النُّصوص المقدَّسَة، حيث تفيض منها أنوارٌ كتلك التِّي نستشفُّها برَّاقة في عمق اللوحات الانطباعيَّة للرَّسامين الفرنسيِّين حيث تتمازج الأشكال والألوان.

---

(1) Nicole de Pontcharra, pp. 21-22.

(2) هي الجداول التي سقى بها الله جنَّة عدن.

(3) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، سورة محمد، الآية 15.

لم يكن تفحُّصُها لِلنُّور المتوهِّج برياضها تأمُّلا في نور الله في الأرض فحسب، هو أيضا بحثٌ في مخيِّلتها الطفوليَّة عن تلك اللَّوحات التي رسمها كلود موني حيثُ يعبرُ النُّورُ أغصانَ الشجرة وأوراقها، إنَّه إشراق يبعثُ في قلبها الدفء كما تقول، يفيض من كلِّ خليَّة من خلايا الادراك الموصولة بمنبع لينامفياس (Les nymphéas)-(الزَّنابق)[1]، بسورة فاطر، وبنشيد الأنشاد، ولعلَّ الآيات الأولى لسورة فاطر جعلتها لا ترى في الكون إلا إبداعا خالصاً وفنًّا أرقى من كلِّ شيء: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2].

وتقول أيضاً: "ليس الموضوع هو الذي يثير في داخلي حبِّي للرَّسم، إنَّما الطريقة التي يتناول بها الرَّسام الفضاء في لوحته، الألوان، الضَّوء، لأنَّه يعبِّر عن إيمانه فيها وتمازجه بروح شخصيَّة اللَّوحة. إنَّ الفنَّ هو الطريق، طريق الولوج إلى الرُّوح[3]. كلُّ شيءٍ مرتبطٌ ببعضه البعض، نقوش غيوتو[4]،

(1) سلسلة من قرابة 250 لوحة، رسمها كلود موني خلال فترات تنسحب على 31 سنة ممَّا كان قد تبقَّى من عمره، كلُّها عبارة عن زنابق حديقته الخاصَّة في حالاتها المختلفة.

(2) سورة فاطر، الآية الأولى.

(3) Nicole de Pontcharra, p. 23.

(4) جيوتو دي بوندوني (*Giotto* di Bondone) رسام إيطالي ولد بفاسبينيانو سنة 1266 وتوفي بفلورانس سنة 1337، يعتبر من المجدِّدين في الرَّسم=

درب زمران والطيور، ديبوسي وأمِّي، ديبوسي ولهوُ مياهه[1].
إنَّ عالماً يكشفُ عن نفسه من خلال الفنِّ والتَّأمُل لَهُوَ أحقُّ بأن نعتني به. لم يكن بمقدوري وأنا في عمر الشَّباب إلا أن أنخرطَ بعنفوانٍ في الحياة وبرغبة كبيرة جدًّا، ضدَّ الآلام التي أفرزتها الحروب، العنصريَّة، والأمراض. كنت مؤمنة بسلطة المفردات، بالكلام، بالقول، بالكتابة، بالترجمة، بسلطة التَّفكير والعمل، بأنَّ أكون وسيلة لتعارف النّاس فيما بينهم، حتَّى يصل بعضهم بعضا في حوار أخوي"[2].

تعتبرُ الكتابة لديها والترجمة[3] معا نتاجَ هذا الفضاء أيضا حيث يتداخل كلُّ شيء: القرآن بالعمران، الإسلام بالمجتمع، أوروبا بإفريقيا، المكان بالأزمنة الغابرة، الوجود بالموسيقى والبصيرة بالرَّسم. تعبِّر دونيز عن هذا قائلةً: "كنت أعرف كيف أدمج في اللَّوحةِ الموسيقى. كذلك، أردت أن أدخل إلى النَّص الأساسي، هذا الذي يرتِّبُ نهارات الكثير من شعوب العالم ولياليه، ابتداءً من الشعب المغربي ومن كتابه المقدَّس الذي هو

= بإيطاليا وبأوروبا، حيث ينحو رسمه نحو الواقعية. لقد صادف أن كانت إيطاليا في تلك الفترة في ازدهار اقتصادي هائل لاسيما بفلورانس التي نراها من خلاله يعبِّر عن برجوازيتها الجديدة.

(1) كلود ديبوسي (Claude Debussy) عازف بيانو فرنسي ولد عام 1862 بسان جرمان أون لاي وتوفي سنة 1918 بباريس. لهو المياه هو ترجمة لمعزوفة بعنوان (jeux d'eau).

(2) Nicole de Pontcharra, p. 25.

(3) لقد خصَّصنا فصلاً في هذا الكتاب لدراسة ترجمة القرآن.

القرآن. من ههنا انبثقت ضرورة العمل على ترجمة جيِّدة ودقيقة بغية إثراء كتاباتي، وكذلك انبثقت ضرورة أخرى في أن أكون في عمق الإيمان الذي يتحلَّى به المسلمون. إنَّ التَّرجمة طريق مَلَكِيٌّ للوصول إليهما معاً"[1].

وليست التَّرجمة فقط تحويل نصٍّ من لغةٍ إلى أخرى، وإنَّما هي أيضا إسقاطٌ كليٌّ لنفسيَّتها على لوحات الرَّسامين. فدونيز ماسون تستغرق نفسها في لوحات الكثير منهم، ثمَّ لا تلبثُ أن تجد لنفسها مكانا فيها، فبيتها مثلا ذو الباب المفتوح على حديقة مقفلة بمراكش كما يحلو لها أن تصفه بذلك ليس سوى لوحة بونار التي كانت تثير فيها تساؤلا حول الذَّات التي كلَّما انتُقِص من كينونتها عمرا وجهداً كلَّما اتَّسعت حديقتها، وصارت مثل جنَّة عدن. بل أكثر من ذلك، يساورني إحساس ما -كمتابعٍ لتاريخ حياتها- في أنَّها تجعل نفسها -بشكلٍ مقصود- جزءاً من لوحة بونار نفسه أين تقف النِّساء على حذوٍ واحدٍ في حدائقهن[2].

التَّرجمة هي أيضا فضاءٌ للموسيقى. تقول في صفحة أخرى من رسائلها: "لقد سعيت في ترجمتي للنَّص القرآني إلى أن أكون

(1) Nicole de Pontcharra, p. 28.

(2) رسام ونقاش فرنسي، ولد سنة 1867 وتوفي سنة 1947. من بين أعماله نساءٌ في حديقة. Femmes au jardin (1891), Musée d'orsay, Paris.

شاعرةً فيه، باحثةً عن الجرس الموسيقي، والإيقاع، حتَّى يتسنَّى للقارئ أن يسمع النَّص قبل فهمه"[1].

فدونيز التي لا يستهويها سماع الموسيقى المسجَّلة، بل تلك الموسيقى الحيَّة التي تسكنها بقوة، جعلت من النَّغم إيقاعا وجوديًّا. كانت معزوفات جمال الدين جوليان فايس[2] مثلا تشرع لها نوافذ روحيَّة بين أوروبا وبلاد الإسلام، تستذكر نفسها وهي صغيرةٌ تجلس أمام آلة البيانو، وتستعيدُ طريقاً من إيقاعه لا

(1) Nicole de Pontcharra, p. 24.

(2) "ولد جوليان في 18 تشرين الأول (أكتوبر) 1953 في باريس، لأم سويسرية ألمانية وأب فرنسي من مقاطعة الألزاس، وتمرّس في موسيقى الغيتار بصيغتها الغربية. ولكنه، كغيره من أبناء جيله، طرح أسئلة حول قيم حضارته الغربية، ومضى ساعياً في بحثه عن الأجوبة، فنقله ترحاله إلى كاليفورنيا ومن ثم المغرب، ومن بعدهما جزر الأنتيل. أسس جوليان عام 1983، فرقة الكندي الموسيقية تحية لمنظّر علم الموسيقى الفيلسوف العربي أبي يوسف الكندي. جمعت الفرقة بعض أبرز الموسيقيين من سورية وتونس والعراق، إضافة إلى أهم أصوات الطرب العربي. (...) اعتنق الفنان الفرنسي الإسلام عام 1996 واختار اسم جلال الدين تيمناً بالرومي مؤسس الطريقة المولوية. اقتنى عام 1995 قصرا مملوكيا من القرن الرابع عشر في وسط حلب القديمة، في جوار الأسواق العتيقة. وانكب على إعداد التوزيعات الجديدة واكتشاف الأصوات المغمورة، ومواكبة الطرق الصوفية. (...). بعد صراع طويل مع المرض، توفي جوليان جلال الدين في باريس عن 61 سنة وهذا عام 2015". انظر: "رحيل جوليان جلال الدين فايس الأوروبي المتيّم بالموسيقى الشرقية"، جريدة الحياة، لندن، يناير، 2015.

يقود إلا إلى الله. على هذا النَّحو، كانت دونيز تنظر إلى الموسيقى كإيقاع سماويٍّ يفيض به كلُّ مقدَّسٍ. تقول أيضا في رسائلها: "وإذا كنت كثيرة الإصغاء للموسيقار ماهلر، فإنَّ الذي رافقني درب العمر إنَّما هو الموسيقار باخ الذي كنت أعزف موسيقاه كلَّ يومٍ تقريباً. الإصغاء للسمفونيَّة الثَّامنة لماهلر مريحة جدًّا. إنَّها تتمتَّعُ بالقوَّة والتَّمكُّن والعذوبة. (...) كنت أسمع هذه السَّمفونية كلَّما لازمتني الحمَّى جرَّاء إصابتي بمرض التيفوئيد سنة 1937 بمراكش. حملني هذا الدَّاء على التَّفكير في امتطاء نغمات ماهلر وأنا في طريق المضيِّ إلى الله، وأيُّ امتطاء! في لحظات التَّعب القصوى، ورعشات الجسد المنهكة، يتجلَّى حبُّ الانسان لله -كما لو لم يكن قبل ذلك- أقوى وأجلّ. فبدونه لا يمكن البتَّة أن تكون هناك سمفونية[1].

7 - وباء التِّيفوئيد، تجربة الموت الجماعي:

مثَّل وباء التيفوئيد أقسى التَّجارب التِّي مرَّت بها المؤلِّفة وهي بين أحضان المسلمين. تجربة سبقت اقتناءها لرياض الحفظـي بعـام، إذ كانت لا تزال تقيم بدرب غراوا، عندما نزل بمراكش الوباء[2]. لم تكن دونيز بمفردها، كان فيليكس

(1) Nicole de Pontcharra, p. 18.

(2) لم يقتصر هذا الوباء فقط على مراكش أو على المغرب وإنَّما امتد ليشمل شمال إفريقيا بأكمله. فحسب التَّقرير الذي قدَّمته منظَّمة الصِّحة العالمية=

آرين[1] يبيت بمنزلها ليلا حتَّى يسعفها بالطَّبيب إذا ما تضاعفت وطأة التَّعب واشتدَّ المرض بِهَا. أمَّا أم كلثوم التِّي خصَّصت لها دونيز صفحات مطوَّلة بسيرتها الذَّاتية فقد كانت تحرص وزوجها عليها ليلاً، حتَّى أنَّ زوجها أغلق دكَّانه بالسُّوق ليتفرَّغ لرعايتها. تقول دونيز عنها: «أم كلثوم رفيقة بي، كانت تغسل ثيابي بينما هناك من النِّساء من كنَّ يرفضن ذلك مخافة انتقال العدوى إليهنّ. كانت تسهر ليلا في غرفتي بجانب الممرِّضة الغافية، ولم

= سنة 1942، وهو منشور بموقعها الالكتروني، شرع وباء التيفوئيد في الظهور ابتداءً من عام 1936 بالجزائر، ثم بتونس سنة 1937. أمَّا في المغرب، فقد ازداد حدَّة الوباء عام 1938 حيث وصلت نسبة الاصابات إلى 7437 حالة، لكن حملات التلقيح الضخمة نجحت في وضع حدٍّ له لاسيما بالمغرب.

كان عام 1940 طبيعياً ولم يتطور التيفوئيد مرة أخرى بشكل غير طبيعي إلا في نهاية عام 1941. فخلال الأسابيع الأخيرة من عام 1941 والأيام الأولى من عام 1942، انتشر التِّيفوئيد بشمال إفريقيا كله بنسب غير عادية. في شهر جانفي، تم الإبلاغ عن أكثر من 6300 حالة بجميع الأراضي الجزائرية والمغربية والتونسية، مقارنة بـ455 حالة في شهر جانفي من عام 1941 وبمعدل 250 حالة في السنوات الـسبع عشر السابقة. بالفعل، فعام 1941، ككل، هو عام التِّيفوئيد"، ففي البلدان الأفريقية الثلاثة الصغرى، وخاصة الجزائر وتونس.

Organisation mondiale de la santé, "Le Typhus en Afrique du Nord., Extraits des renseignements recueillis par la section d'hygiène du secrétariat de la société des nations" in *Relevé épidémiologique hebdomadaire*, 17 (14), pp. 86 - 88., 2 avril, 1942.

انظر:

http://www.who.int/iris/handle/10665/235511

(1) انظر لفيلكس آرين في هامش الصفحة رقم 80.

يكن ليغيب عنها شيء. عندما فقد سكَّان البيت المجاور، الذين لا أعرفهم، أحدا منهم، نصحت النِّساء بتجنُّب العويل حتَّى لا يرعبنني».

لقد كتبت في سيرتها الذَّاتية في فصلٍ لاحق ما يشبه مقالا حول نظرة المسلمين للموت ومواجهتهم له[1]، وفي الواقع، فإنَّ هذا المقال يعكس تطوُّراً ملحوظا في تجربة الكاتبة الوجوديَّة. تقول في ذلك:

"كثيرٌ من الفرنسيِّين يتحدَّثون باستفاضة عن الكوارث العالميَّة كأنَّهم غير معنيِّين شخصيًّا بالآخرين الذين يموتون، لكنَّهم نادرا ما يفكِّرون فيما سيؤول بهم الأمر لو كانوا ضحاياها.

إنَّ المسلم الحقيقي يعيش في يد الله، فكلٌّ من الشَّيخ والشَّاب، والمريض والمعافى، مستعِدٌّ للموت بين الفينة والأخرى. يعرفون جيِّداً أنَّ جسدهم سينتهي إلى التراب ليكون عرضة للدُّود. عندما تكتشف النساء السُّوس وهو مندفع نحو مخزون القمح بالبيت، فإنَّهن يسترجعن صورة الموت، قائلات: "على الرَّغم من كوننا لا نريد الآن أن نرى الدُّود في قمحنا أو في دقيقنا، لكنَّنا عندما نموت، هذا الدُّود هو الذي سيلتهمنا".

كلُّ مؤمِنٍ يعيش منتظرا الموت، منتظرا السَّاعة التِّي حدَّدها الله. ما الذي سيقدرُ عليه ابن آدم، أيغيِّرُ القدر لو كان طبيبا؟

(1) Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé*, p. 306.

علامَ الاحتياط والحذر ما دام الموتُ قدراً محتوماً؟ يقول المسلمون على الدَّوام: لا نفعل هذا أو ذاك غداً إلا أن يشاء الله بإبقائنا على قيد الحياة. لقد عرفتُ الكثيرين من الذين أُصيبوا بداء السُّل، لم أحسَّ فيهم أدنى شعورٍ بالخوف. كانت صديقتي الشَّابة تقول في أيَّامها الأخيرة: سأكون في بردٍ عند الله، أليس كذلك؟" ذكَّرني هذا التَّعبير بمرحلة عاشها إبراهيم في حياته، فبعد أن رماه الوثنيُّون في النَّار، كما يروي ذلك القرآن الكريم، وجدَ بأعجوبة بردا فيها وسلاما. نجد في كتاب صلوات القُدَّاس الرُّومانيَّة (ميسال) وصفا لحياة الآخرة على أنَّها دار برد[1].

بعد تعافيها، انتقلت دونيز بفضل أمِّها إلى فندق المامونيَّة، لقضاء فترة النَّقاهة المطلوبة وتماثلا للشِّفاء، ثمَّ ما لبثت أن تحوَّلت بعدها مباشرة إلى بيتها الجديد برياض الحفظي.

8 - تطلُّعٌ منتكِس 1940 ـ 1947:

لعلَّ أكبر ما ساورها من انتكاسات مهنية وهي بالمغرب فشل مشروعها في تكوين مُعينات اجتماعيَّات لشمال إفريقيا. فكثيرا ما كانت تشكو في رسائلها من تلك الخيبة التي ألمَّت بها جرَّاء توقُّفِها الإجباري عنه. ففي عام 1940، أطلقت دونيز مشروع تكوين نساء يعملن ضمن المجال الاجتماعي لمساعدة العائلات المسلمة، والنِّساء على وجه الخصوص، وذلك تحت

(1) Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé*, p. 306.

رئاسة لوسيان باي، الذي كان يشغل آنذاك منصب مدير التَّعليم الإسلامي بالمغرب. كان هذا المشروع يقضي بتأسيس مركز للتَّدريب يتم فيه تكوين مُعينات اجتماعيَّات على أصعدة مختلفة: إسلامية، قانونيَّة، اجتماعيَّة. ولأنَّ هذا المشروع الطَّليعي لم يلق ترحيبا من قبل سلطات فرنسا الاستعماريَّة خوفاً من أن يُسهم في تحريرٍ سريع للنِّساء المسلمات، فإنَّ دونيز ماسون قرَّرت العودة إلى عالم الدراسة، وقد شجَّعها على ذاك المستشرق لويس ماسينيون ورجل الدين المسيحي لويس غاردي.

كانت تسمِّي خيبتها بالجرح، لأنَّها اشتغلت دون أن تكلَّ رغبةً منها في تطوير المجتمع المغاربي. والمشروع في مجمله كان يخصُّ البلدان الثلاث للمغرب الكبير. تقول: "مثَّل هذا المشروع حياتي كلَّها. فارتباطي بالشَّعب المغربي لهُوَ أمرٌ أساسيٌّ بالنسبة إلي، إنَّه بحاجة إلى من يأخذ بيده. حاولتُ كلَّ شيء، الكيدورسي[1]، مركز الدراسات العليا للإدارة الإسلاميَّة، إدارة الصِّحة العموميَّة التي كنت معها على علاقة وثيقة. كان لديَّ حلمٌ بتكوين معينات اجتماعيَّاتٍ يدرسن العربيَّة ويتخصَّصن فيما له علاقة بالقضايا الاجتماعية المغربيَّة، من جهة الدِّين والقانون الإسلاميَّين. انضمَّ إلى مشروعي أطبَّاءُ، مثقفون على درجة عاليةٍ من الوعي. كلُّ هذا الجهد أجهضته "السُّلطة والإدارة على الرغم

(1) مبنى وزارة الخارجيَّة الفرنسية.

من أنَّ المجتمع المغربي كان يحدو به الأمل في تنمية العنصر النِّسوي، فكلُّ الظروف كانت مواتيةً لفتح مركز خاصٍ بالإعانة الاجتماعية. إنَّ هذا الفشل ليس سوى نتيجة حتميَّة للغباء والنيَّة السيِّئة المبطَّنة. كم من مرَّة تبجَّح أمامي الموظَّفون بلغة الخشب قائلين: إنَّ الدَّولة هي الوحيدة القادرة على إدارة مشروع بهذه الحساسية، وهو مشروع لا يطال السِّياسة الاندماجية فحسب؛ وإنَّما أيضا السياسة الاجتماعية التي سطَّرتها الحكومة.

لا أزال أحتفظ برسائل النساء الشَّابات الفرنسيات اللَّواتي كنَّ يقترحن كفاءاتهنَّ لخدمة هذه القضيَّة، كم كنَّ متحمِّسات لتعلُّم العربيَّة، للتَّقرب من الواقع الاجتماعي، وخدمة المغرب الذي يسير في طريق التَّقدم. لعلِّي كنت مصابةَ بالوهم. فقد كان يبدو لي أنَّ الصحة العموميَّة وإدارة الشُّؤون الاجتماعية باتتا منذ 1941-1942 مستعدَّتين لإطلاق مشروع الإعانة الاجتماعية، ذلك أنَّهما كانتا قبل 1940 رافضتين له رفضا مطلقاً. لكنِّي كنت مخطئة. فليس من الواجب [من وجهة نظرهم] أن يتطوَّر المغاربة على نحوٍ سريع، وأن يتكلَّم الفرنسيون العربيَّة الدارجة، وأن يعمل كلاهما على تحرير الطبقة الكادحة ذات المستوى التعليمي المنعدم"[1].

لقد واصلت دونيز مهنتها الأساسية لاحقاً. ففي رسائلها نكتشف كيف أنها كانت تزاول تطبيب المرضى حتى في أسفارها

(1) Nicole de Pontcharra, pp. 45-46.

داخل المغرب. تقول في رسائلها بعدما عادت من زيارتها لجبال الأطلس: "إنَّ القرى ههنا محرومة من أبسط وسائل العلاج الطبي، وهو ما حرمني الاستمتاع بجمال الطبيعة، من مناظر الدَّواوير[1] والأحياء العتيقة. تعيش النساء حالة مزرية ويعانين ظروفا قاسية، ولا يكمن الحل إلا في التَّربية والتَّنميَّة، فمن شأنه تحويل حياتهنَّ نحو الأفضل".[2]

9 ـ دونيز والاستعمار:

لم تُعِرْ دونيز بالاً للسيَّاسة أو اهتماماً بها، بل السيَّاسة هي التي كانت تعبر حياتها إذْ لَـمْ يكن لها من ذلك مناصٌ[3]. فلقد ساندت ماسون الحركة الوطنيَّة الاستقلالية للمغرب[4]، التي -كما جاء في شهادات نيكول دي بونتشارا- قد قدَّمت لأعضائها يد المساعدة باستقبالها لهم في بيتها؛ محلِّلةَ وإيَّاهم الوضع آنذاك،

(1) من اللهجة المغاربية وتطلق على القرية ومفردها دوار.

(2) Nicole de Pontcharra, p. 88.

(3) Marie-Christine Gambart, *Denise Masson, la dame de Marrakech.*

(4) هي حركة نضالية ذات بعد اجتماعي وسياسيٍّ، ولدت بعد انتهاء حرب الرِّيف التي قادها عبد الكريم الخطابي بخمس سنوات أي عام 1930 وذلك لغرض مناهضة الانتداب الاسباني والفرنسي على المغرب والمطالبة بإدخال إصلاحات سياسية كفرض مبدأ المساواة بين الفرنسيِّين المقيمين بالمغرب والمغاربة. ونتيجة تعنُّت سلطات الانتداب آنذاك أمام المطالب المقترحة، أصدرت الحركة الوطنية المغربية وثيقة الاستقلال التي أعلنت المقاومة المسلحة ابتداء من سنة 1953، لكن سرعان ما تمَّ الوصول إلى اتفاق يقضي بمنح المغرب حقَّه المشروع في الاستقلال عام 1956، وذلك تكثيفا للجهود الاستعماريَّة وتوجيها لها نحو الجزائر أين كانت الحرب في خضم أوارها.

ومسديةً لهم نصائح، ومقدِّمةً لهم الرأي والمشورة، لكنها بقيت على الدَّوام حذرة جداً بشأن وضعهم ومتكتِّمة، إذ لم يحدث وأن باحت باسم من أسماء من كان يزورها من الوطنيّين لأنَّه لم يكن آنذاك مسموحا لهم بممارسة نشاطهم السيَّاسي[1].

لقد ولد لديها هذا التَّعاطف مع الحركات الوطنيَّة وهي فتاةٌ لا تزال يافعة، تروي في مذكراتها: أنَّه في عام 1918، حول موضوع ما، كتبت واجبا مدرسيا تقول فيه ما يلي: "إنَّ فكرة الانسانيَّة في حدِّ ذاتها هي أعلى من فكرة الوطن". وتعقِّب عن ذلك قائلةً: لقد منح لي الأستاذ فيكتور ذو الشَّوارب السَّوداء المدافع بجنونٍ عن حركة العمل الفرنسية[2] علامة صفر وكتب على هامش الواجب ما يلي:" بسبب هذه الأفكار اشتعلت أوروبا نارا ودما". تقـول دونيز معلِّقةً على هذه الملاحظة ومتعجِّبةً منها: إنَّه يقول ذلك كما لو أنَّني أنا المسؤولة عن هذه الحرب[3].

لقد كَبُر معها هذا الانتماء الكبير إلى الانسانيَّة حتى صار قضيَّة تدافع عنها، ليس في المغرب فحسب؛ وإنَّما أيضا في شمال إفريقيا وفي العالم.

---

(1) Marie-Christine Gambart, *Denise Masson, la dame de Marrakech.*

(2) هي مدرسة فكرية وحركة سياسية ذات بعد وطنيٍّ وملكيّ، ظهرت بشكل قويٍّ في منتصف القرن العشرين بفرنسا. أُفرزت حركات كثيرة من بينها المواراسية نسبة إلى شارل موراس (1952 - 1868).

(3) Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé*, pp. 213-214.

لقد كانت دونيز ماسون من بين الأوائل الذين ساهموا في استقبال الأطفال الجزائريين اللاجئين إلى المغرب، دعماً لها للاتحاد العام للعمال الجزائريين في سياق توفير الظروف الحسنة للأطفال الهاربين من الحرب إلى ليبيا وتونس أيضا[1]. كما سنلاحظ وقوفها إلى جانب الثَّورة الجزائريَّة؛ ليس دعما للمناضلين الجزائريِّين بقدر ما هو أيضاً دعمٌ لليسار المسيحي بفرنسا. إنَّ إعجابها الكبير بكتاب أحمد طالب الابراهيمي "رسائل من السِّجن" الذي اطَّلعت عليه في شتاء عام 1967 لخير دليل على ذلك. "رسائل من السِّجن" هو كتاب ألَّفه الابراهيمي وهو بسجن فران بفرنسا بين 1957 و1961 بعد أن ألقي القبض عليه بسبب نضاله الوطني ضدَّ الاستعمار الفرنسي. هذه الرسائل التي كانت موجَّهة -بالأساس- إلى الآباء المسيحيِّين والقساوسة البروتستانيين، والمناضلين الجزائريِّين، والكتَّاب كجاك بيرك، كلود روا، ألبير كامي، وغيرهم، أثارت حفيظة دونيز وعبَّرت -بطريقة غير مباشرة- عن موقفها اليساري إزاء الثَّورة الجزائريَّة. رأت دونيز ماسون في الابراهيمي نموذجَ من كان يريد تشييد جزائر جديدة تكون قادرة على بناء جسر بين المسلمين والمسيحيِّين، ووقفت إلى جانب الكاتب في لومه الذي ألقاه على عاتق الكنيسة التي تخلَّت عن المسيحيِّين في معركتهم من أجل السِّلم والعدالة مع

(1) *Jacques Charby,* Les enfants d'Algérie? récits et dessins. témoignages et dessins d'enfants réfugiés en Tunisie, en Lybie et au Maroc*, éd., Maspero, Paris, 1962.*

الجزائريين بينما كان بإمكانها مساندتهم في قضيتهم ضدَّ الظلم. وفي الواقع، فقد وقف بعض المسيحيِّين اليساريِّين مع الثُّوار الجزائريِّين. والقارئ لمذكرات أحمد طالب الابراهيمي سيكتشف كيف كان لهؤلاء الدَّور الكبير في إيواء المناضلين ومساعدتهم على نقل الثَّورة الجزائريَّة إلى قلب باريس[1]. إنَّ يساريَّة ماسون ليست وليدة الثَّورة الجزائريَّة، بل وليدة معاينتها للواقع الاستعماري بالمغرب أيضا. ولقد ألقت محاضرة عام 1944 لم تعجب الكثيرين عقدت فيها مقارنة بين ما قدَّمه الفرنسيون للمغرب وما انتزعوه منهم[2].

ولعلَّ هذه الرُّوح نجدها مستمرَّة فيها، فقد كانت لا تزال ترى أنَّ وسائل الإعلام في فرنسا تستمرُّ في التَّضييق على

(1) مذكِّرات جزائري، أحمد طالب الابراهيمي، ج1، دار القصبة الجزائر، العاصمة، 2007، ص113-114. يقول أحمد طالب الابراهيمي عن المناضل الفرنسي "روبار بارا: إنَّهُ الذي أنشأ الخلايا الأولى لمساعدة جبهة التَّحرير الوطني، خاصَّة ما يتعلَّق بالإيواء والطباعة، وكانت هذه الخلايا تنشط أساسا في صفوف اليسار المسيحي. وقد ذهب إلى أبعد من ذلك حين وضع تحت تصرُّفنا أستوديو كان يملكه في شارع موسيو، وكان يأوينا حين يتطلَّب الأمر ذلك في منزله في دانبيير. وكان يكافح في أوساط رجال الكنيسة والأوساط السياسية والصَّحافة. وانتهى به الأمر إلى السجن بسبب نشاطاته. وكان أول من أدرك أن الايمان بالوحي الالهي ونَفَس الثَّورة يمكنهما أن يتعايشا عند الفرد نفسه لأن الخلافات التَّقليدية بين اليسار واليمين في نظرنا تسمو فوقها إرادة في الانعتاق تعطش إلى العدالة الاجتماعية".

(2) Nicole de Pontcharra, p. 49.

الدِّيانات. وكثيرا ما انتقدت الكثير من تلك المؤسسات التي لم يكن هدفها سوى استخدام المسلمين لأغراض محدَّدة الأجل[1].

في حوارها المذاع على أثير راديو فرانس كيلتير[2] سنة 1986، أبــدت دونيـز تذمُّراً كبيــرا، فهنــاك "...أسئلة أزعجتني قليلا -تقول- وذلك عندما قدَّم المذيع ملاحظة عن علاقتي بالإسلام قائلاً: "لقد عِشتِ في قلبِ أفيون الشُّعوب"، كان هذا لأنني كنت أتحدَّث عن الإسلام الذي يمثِّله أناس بسطاء، أشخاصٌ تملؤهم الطِّيبة أغلبهم أميُّون، الذين يسمعون الرَّاديو ولكن لا يقرؤون الجرائد. إنَّ لدى المسلمين الذين أسلموا أنفسهم لإرادة الله وفاءً لعباداتهم أكثر بكثير ممَّا هو لدى المسيحيِّين. ولقد بيَّنت أنَّ التَّقاليد هي أكبر عائق يعترض تقدُّم دينهم وليس القرآن الذي هو كلام الله. إنَّ الفكر القرآني أكثر وضوحا من الفكر المسيحي من جهة العقيدة (...) ولديَّ انطباعٌ بأنَّ القرآن لدى الشُّعوب المسلمة يحتوي على كلِّ ما ينبغي معرفته، وبالتالي، فلا حاجة لهم للبحث عن إجابات بعيداً عنه"[3].

وإذا كانت دونيز ماسون قد استُبعِدت عن السياسة المغربيَّة بعد الاستقلال، كما أشارت إلى ذلك في رسائلها سنوات الثمانينات حيث لم تكن تملك معلومات عن الحياة السياسية

(1) المرجع نفسه، ص 46.

(2) Radio France culture. voir Nicole de Pontcharra, p. 99.

(3) Nicole de Pontcharra, p. 100

للبلد سوى ما أفرزه تخمينها وخلصت إليه استنتاجاتها[1]، فإنَّ هذا لم يمنعها من توجيه انتقاداتها للمغاربة، فلقد أعابت على سبيل المثال تغيير مراكش لعمرانها الذي تراجع لحساب التَّطور السِّياحي؛ واحتلال ملاعب الغولف المناطق الزراعيَّة، وتضحية مقاولي البناء بالواحات، والتلوُّث جرَّاء الازدحام العشوائي، وكلُّ هذا في ظل غياب سياسة استراتيجيَّة ذات بعد اجتماعي وثقافي للمدينة. إنَّني حزينة -تقول دونيز- للفلاحِّين الذين اُستُبْعدوا بدون علاج، للتَّلاميذ الذين يتلقَّنون تدريسا متدنِّيا. كم كان حلمنا كبيرا بأن يصير المغرب بعد الاستقلال بلدًا حيث تتجلَّى فيه قيم العدالة والتساوي[2].

(1) Nicole de Pontcharra, p., 88.

(2) Nicole de Pontcharra, p .52.

عرض موضوعي لكتبها

اهتمَّت دونيز ماسون بالدراسات المقارنة للدِّيانات الثلاث معتمدة بالأساس على النُّصوص المقدَّسة. وأصدرت فضلا عن ترجمتها للقرآن التي نشرت سنة 1967 برعاية دار غاليمار للنَّشر، بباريس مؤلَّفاتٍ عدَّةً من بينها: "القرآن والتنزيل اليهودي-المسيحي"، الذي نشر بدار أدريان ميزونيف، بباريس سنة 1958؛ "التَّوحيد القرآني والتوحيد الانجيلي"، الذي نشر بدار ديسلي دي بروار، بباريس سنة 1976؛ ترجمة معاني القرآن الكريم، بمراجعة الدكتور الصبحي الصَّالح، والذي نشر بدار الكتاب اللبناني، ببيروت عام 1980؛ "سبلُ الله الثلاث[1]" المنشور بدار ديسلي دي بروار بباريس عام 1983؛ "الماء، والنَّار، والنُّور، وفق الانجيل والقرآن والسُّنن التوحيديَّة"، المنشور أيضا بدار ديسلي دي بروار، بباريس سنة 1986؛ "باب مفتوح على حديقة مقفلة: القيم الجوهرية والتقليدية لمجتمع في قلب التَّطور، مراكش 1939-1989"، وهو عبارة عن سيرة ذاتية نشرتها دار ديسلي دي بروار، بباريس عام 1989. كما كتبت مقالات، من بينها: "خصوصيَّة القرآن"، الذي نشر بجريدة لوموند بباريس عام 1989، وهو مقال قمنا بترجمته مضمِّنين إيَّاه

(1) اقترح سمير لطفي مسمًّى آخر للعنوان وهو: "المسارات الثلاثة للموحد". انظر المرجع السابق: سمير لطفي.

دفتيّ هذا الكتاب. وهناك رسائل منشورة بعنوان: "الآنسة ماسون رسائل إلى فتى، قامت بالإشراف عليها وتنسيقها نيكول دي بونتشارا، ونشرتها بدار نون ليو، بالرباط عام 2009؛ أي بعد 15 سنة تقريبا من وفاة دونيز ماسون.

وسنعرض في هذا الفصل محتوى كلٍّ كتاب معتمدين على الانتقادات التي وجَّهها مستشرقون من خلال القراءات التي قدَّمها هؤلاء ونُشرت بالمجلات والجرائد والصُّحف.

1 ـ القرآن والوحي اليهودي ـ المسيحي

حاولت الكاتبة في هذا الكتاب[1] أن تشرح القرآن في ضوء الايمان المسيحي الكاثوليكي، بغية الخروج بنتيجة عن العلاقات الموجودة بين الإسلام واليهوديَّة والمسيحيَّة؛ حيث تبنَّت منهج المقارنة بينها متطرِّقةً إلى الذَّات الالهية من خلال الأسماء الحسنى، إلى موضوع الخلق، الطبيعة، طرق الوحي وإلى موضوع واجبات الانسان نحو الله. ولقد رفضت في المقابل أن تعتمد المنهج التَّاريخي؛ وهو أمرٌ يبعث على الدَّهشة كما يعبِّر عن ذلك أندري كاكو[2]، فلقد "أرادت -حسب اعتقاده- أن يكون تصوُّرها للوحي القرآني إسلاميًّا على هذا النَّحو بعيداً عن

(1) Denise Masson, *Le Coran et la révélation judéo-chrétienne: Etudes comparées*, éd. Adrien Maisonneuve, Paris, 1958.

(2) Caquot André, "D. Masson. Le Coran et la Révélation judéo-hrétienne. Études comparées", in *Revue de l'histoire des religions*, 1960, 157-1, pp. 107-108

المراحل التّي مرَّ بها محمَّدٌ (ص). في المقابل، لم تتناول الدِّين المسيحي كوحي إنجيلي فحسب، وإنَّما أيضا كوحي مؤوَّلٍ من قبل كنيسة القرن السَّابع، الفترة التي عاش بها رسول الإسلام (...). إنَّ المقارنة الحقيقيَّة لا يمكن بناؤها انطلاقا من مواضيع عقائديَّة هي في الأصل متمايزة، ولكن انطلاقا من المكان الذي تشغله هذه المواضيع في المنظومات التي يتم تناولها بالدراسة. ففي كلِّ ظاهرة دينيَّة، تمثِّل العقيدة جزءاً من كلّ، ولا بد من النَّظر إلى وظيفتها في علاقتها مع هذا الكلّ. هذا هو الانتقاد - يقول أندري كاكو- الذي يمكن أن نوجِّهه. إنَّ هذا الكتاب هو مقلقٌ للمؤرِّخ، لكنَّ وضوح تأليفه، ثراء محتواه إنَّما هو في العمق أداة في غاية الأهمية لمن يريد من المسيحيِّين أن يتطرَّق للاسلام، وللقرآن على وجه الخصوص"[1].

2 ـ التَّوحيد القرآني والتوحيد الانجيلي

أمَّا المؤلَّف الثَّاني[2]، التَّوحيد القرآني والتَّوحيد الانجيلي، فقد تطرَّقت في الكتاب الأول إلى فصل "الله" إلى مسألة أسمائه الحسنى ثمَّ إلى فصل التَّثليث، كما تناولت في كتاب الخلق الثاني فصل الكونيَّة وفصل الملائكة، وفصل الجنِّ والشَّياطين،

(1) المرجع السابق، الصفحات نفسها.

(2) Denise Masson, *Monothéisme coranique et monothéisme biblique,* (doctrines comparées); préface de Jean Grosjean, éd. Desclée de Brower, Paris, 1976.

وفصل الطبيعة البشريَّة، وفصل المسيح الانسان الكامل. أما في الكتاب الثَّالث، فقد تناولت فصل الوحي الدِّيني التَّوحيدي وفصل الأنبياء.

ثم جاء الكتاب الرابع في جزئين: جزء يحمل عنوان القرآن كأساس أوَّليٍّ في تشريع العبادات، ويتناول فصلَ العبادات وما يجب على الأمَّة نحو الله: كالصلاة، والزكاة، والحج، والأعياد، ثمَّ فصلُ خاص بالمسلمين وما يترتَّبُ عليهم من فروض خاصَّة بهم. أمَّا الجزء الثَّاني فتناولت فيه القرآن كأساس أوَّليٍّ في تشريع السلوك الانساني. وأمَّا الكتاب الخامس والأخير فيتعلق بموضوع الايمان بالآخرة، لاسيما بموضوع السَّاعة، والقيامة، والبعث، والنُّشور، والكتاب، والشُّهود، والحساب، ثمَّ بموضوع الغبطة الأخيرة وفق اعتقاد المسيحيِّين.

ولقد انتقد جورج فايدا منهج هذا الكتاب، قائلاً: تقابل المؤلفة التي "تسعى لإيجاد القيَم الرُّوحية المتأصِّلة في كل ظاهرة دينيَّة" بين المسيحيَّة (كما نحياها في أيامنا على طريقة الديانة الكاثوليكية الرومانية) وبين الإسلام (السني) من خلال خمسة "فصول" تعنى بالرّبّ، الخلق، الوحي، فقه العبادات، الناس والمعاملات فيما بينهم، وأخيرا الحياة المستقبلية. إنَّ مسؤوليَّة تصنيف المعطيات كلِّها (بما في ذلك اليهودية الحاخاميَّة التي لم تقم بتغييبها) تحت الـمُلصَقَيْنِ الـمُكَوِّنين لعنوان الكتاب لا

يتناسبُ وجمعَ دونيز ماسون -التي نحترم ثقافتها ونقدر سخاء علمها والتي تتمتَّع بحريَّة كبيرة- لأهمِّ ما فيهما. لن يكون من الجيِّد ههنا فتح نقاش حول كيفية عرض المعطيات (التي يزخر بها العهدان والقرآن)، فـ"هذا الكتاب لا يصنَّف ضمن المنهج التاريخي" (ص 26). إنَّنا نرجو ببساطة أن يحظى هذا الكتاب المستوحى من مشاعر نبيلة نقدرها مرة أخرى، بالقبول اللائق ضمن القراء الذين ألِّف خصِّيصا لهم[1].

أمَّا أندريه رايكس[2]، فيقول: "منذ عدَّة عقود والمؤلِّفة تواصل بحثها في المدينة المغربية بدقَّة وصرامة، وها هي تقدم لنا اليوم نتاج ذلك في هذا الكتاب الضخم الذي يستكملُ ما صدر لها سابقا تحت عنوان آخر: "*القرآن والوحي اليهودي المسيحي، دراسة مقارنة*"، وهو عنوان ذو دلالة بما أنه يهتمّ مبدئيّا بتشابه المقاصد في كلتا العقيدتين على اختلاف مذاهبهما. ويشير جان غروجان بوضوح في مقدِّمة الكتاب إلى "أن ألوهية الرّبّ المسيحي بعيدة كلَّ البعد عما يتصوَّره المفكِّرون، وفي هذا الصدد، فإن القرآن يقول بوحدانية الإله بعمق رائع. يتكلَّم

(1) Vajda Georges. D. Masson. "Monothéisme coranique et monothéisme biblique". *In: Revue de l'histoire des religions,* tome 194, n°2, 1978. p. 207.

(2) Reix André., "Denise Masson, Monothéisme coranique et monothéisme biblique. Doctrines comparées". *In: Revue Philosophique de Louvain.* Quatrième série, tome 78, n°39, 1980. pp. 462-463.

الإله الواحد ويقول للشَّيء: "كن" ليكون، خلقُهُ يوافق قولَه. أمّا الذَّات الإلهية فتظلُّ فائقة كلَّ وصف، وهذا يكفيها". بالنِّسبة إلى اللاهوتيِّين، فعملهم لا يحظى بالإعجاب مع أنهم يستميتون في طرح أفكارهم، ذلك لأنه لابد من مفاهيم كافية للتَّعبير عن المجردات. لا تقوم الكاتبة بازدراء تلك المفاهيم الأساسية؛ فهي تستشهد بإطناب، انطلاقا من القرآن، بترجمتها الرَّائعة له، وكذلك انطلاقا من الكتاب المقدَّس، بالرجوع إلى أحسن المعلِّقين لكلا العهدين، لغرض تقديم تعاليم الإسلام الخاصة بكل مسألة مكوِّنةٍ للدين[1].

على غرار فلسفة توماس داكين، هناك عقيدة دينيَّة قرآنيَّة تعطينا، في الوقت ذاته، التَّعاليم الخاصَّة بالكتاب المقدَّس والتَّفاسير المسيحيَّة واليهوديَّة دون صدام بينها، إنَّها تبيِّن حرفيًّا ما تشابه بينهما وما اختلف. وبالتَّالي، فالدِّراسة الأولى إذ تُعنى بالإله الواحد إنَّما تعنى بمفهوم مشترك بين الدِّيانات التَّوحيدية الثَّلاث.

هذا في الحقيقة أساس الدِّين، إله الإسلام هو إله الكتاب المقدَّس. فالعهد الجديد يرصد بطريقة جديدة مظاهر الإله

(1) وهذه المسائل هي: الإله وصفاته، الثَّالوث الإلهي، الخلق؛ الملائكة، البشر ويسوع الرجل الكامل، وَحْي التوحيد والأنبياء، تعاليم القرآن الخاصة بالعبادة، الناس وتعاملاتهم فيما بينهم؛ الحياة المستقبلية وعودة الإنسان إلى إلهه، وجميع الآفاق المفتوحة بما فيها السَّعادة الأخروية.

الواحد الخاصَّة، لكن ذات الإله تبقى خفيَّة عن كل ذكاءٍ مخلوقٍ. والقرآن يصرُّ على التَّوحيد والسّموّ، ما لا يتعارض مع الفكر الأرثوذكسي. وحقيقة السُّموّ المطلق لسرِّ الإله هي حقيقة الاعتقاد المعبَّر عنه على لسان البشر دون أن يكون ذلك متناسبا بالضَّرورة مع حقيقة الألوهية. كلّ أمر إنَّما هو آت من لدنِ الإله الواحد وإليه مرجعه؛ ذاك هو الموضوع المحوري للديانات التوحيدية الثلاث.

إلاَّ أنَّ الكاتبة لا تُعنى بالمنهج التاريخي؛ بل تقتصر على تحليل العناصر الدينية والروحية المتأصلة الموجودة في القرآن، مؤكِّدة على نقاط التَّوافق الممكنة، والمؤسَّسة لحقيقة التَّصورات الثَّلاث للدِّيانة الواحدة. هي مع ذلك لا تتناسى المواقف التاريخية والنقدية بل ترجو أن يقوم علماء ومختصون بمتابعة البحوث في هذا الصدد. كتابها يمثل إنجازا مهما في تكوين المفاهيم والمصطلحات الأساسية في فلسفة الفكر الغربي"[1].

أمَّا ريجيس بلاشير فقد انتقد الكتاب في مقاله الصَّادر بمجلَّة أرابيكا؛ متعجِّباً من خلط الكاتبة بين القناعة الدِّينيَّة والرُّوح العلمية الواجبة في البحث، يقول: "تحدِّد الكاتبة هدفها من خلال المقدمة، حيث نجد في الصَّفحة التَّاسعة قولها: إنَّ القرآن هو بمثابة "الجامع المانع، الأمثل على الإطلاق، وبلغة

(1) Reix André., pp. 462-463.

عربية، من كلام الإله وهو المحفوظُ بعضُه في التَّوراة والإنجيل. لذلك فهناك ما يسمح بدراسة الرِّسالة القرآنية من خلال ما أوحي به سابقا؛ حتى أنَّه من المستحب لفهمٍ صحيحٍ للإسلام أن نبحث، ونحن نتوخَّى الحذر ونتوسَّل الاحترام، عن العناصر المشتركة بينه وبين اليهودية والمسيحية، لبيان التَّشابه الفكري والتعبيري، وكذلك أن نقوم بمقارنة مذهبية بين هاته الدِّيانات الثَّلاث النَّابعة من مصدر ساميٍّ إبراهيميٍّ واحد". لكن الآنسة ماسون تنفي وقوعها في شِراك الإعجاز العلمي وموقفها بذلك مخالفٌ لما ينبغي أن يكون عليه موقف المؤرِّخ"[1].

3 ـ سبلُ الله الثلاث

أمَّا كتاب "سبلُ الله الثلاث"[2] الذي نُشِر سنة 1983، فقد تناولت فيه صاحبته خمسة عناصر أساسية للدين الإسلامي وهي: أسماء الله الحسنى، والوحي والأنبياء، وقواعد الإسلام الست، واجبات المسلم، والبعث والنُّشور. ولقد علَّق على هذا الكتاب الباحث الأكاديمي الفرنسي ذو الأصول الجزائريَّة محمَّد أركون، قائلاً: "في مناخ مراكش الأخَّاذ، عاشت د.م طويلا في حميميَّة مع القرآن الذي ترجمته مقابلةً إيَّاه بالانجيل. إنَّها مهيَّأة

(1) R. Blachère, "Le Coran et la Révélation Judéo-Chrétienne, études comparées by Denise Masson", *in Arabica,* Brill, T. 7, Fasc. 1 (Jan., 1960), pp. 93-95.

(2) Denise Masson, *Les trois voies de l'unique*, éd. Desclée de Brower, Paris, 1983.

جدًّا للحديث عن "السُّبل الثلاث للواحد" تـماما مثلما فعل ر. أرنالداز في كتابه "ثلاث رسلٍ لإله واحد" (باريس، دار أ، ميشال، 1983). كلا الكاتبين كاثوليكي، ولديهما نيَّة المساهمة في حوار إسلامي مسيحيٍّ ضمن المشروع الذي رسمه لويس ماسينيون ولويس غاردي. يتمثَّل هذا المشروع في تمكين التَّسامح من أن يكون بديلا عن التهميش واللغط والجدل وحتَّى الحروب التي لم تتوقف عن التَّفريق بين المسيحيِّين والمسلمين منذ قرون. لأجل هذا، نتوسَّلُ القراءة المبسَّطة للنُّصوص المقدَّسة، واضعين نصب اهتمامنا النِّقاط القويَّة التي يشترك فيها ما أُوحِيَ به الأنبياءُ تباعاً من لدن الإله نفسه.

فكريًّا، فإن الآلية التَّصوُّرية والأساليب المستخدمة قد عفا عنها الزمن؛ كأنَّنا نفكِّر، ونحلِّل ونكتب كما لو أنَّ علوم الإنسان والمجتمع[1] لم تتطور على الإطلاق ولم تُغيِّر من المشهد المعرفي منذ الخمسينيات. أمَّا من النَّاحية الأيديولوجية، فإن المبادرة حديثة للغاية؛ إنها تتعلق بتعزيز جبهة "الرُّوحانية" ضد غزو المادية والعلمانية المنتصرة والإلحاد المناضل. هذا هو السبب الذي يجعلني أعتقد أنَّ أعمال دونيز تندمج ضمن نوعٍ سيتزايد نجاحه مستقبلاً[2].

(1) يقصد من ذلك العلوم الانسانيَّة والاجتماعية.

(2) Arkoun Mohammed, "Masson (Denise), Les trois voies de l'Unique". *In: Archives de sciences sociales des religions,* n°58/2, 1984. p. 288.

4 ـ الماء، والنَّار والنُّور، وفق الانجيل والقرآن والسُّنن التوحيديَّة

قامت ماسون في هذا الكتاب[1] باتِّخاذ الرموز[2] التي تعتبر- في مجملها- عناصر وإشارات مزروعة في عمق النَّفس البشرية وسيلة لمقارنة الأديان الثَّلاث. فالرَّمز في عمومه هو وسيلة تعبير تستخدم المواد، والمواضيع والظواهر الطبيعية محمِّلةً إيَّاها دلالة مختلفة، عن تصوراتنا التي تعوَّدنا عليها، وهو ما يسمح بمعاينة الواقع الرُّوحي والغيبي انطلاقا من عناصر محسوسة. فمارسيا إيلياد يعتقد انَّ "اللغة الدِّينية العالمية الوحيدة = هي لغة الرموز"[3]. وفي الواقع، فإنَّ للديانات جميعها، منذ فجر التَّاريخ، طقوساتٍ ورموزاً قابلة للمقارنة فيما بينها. أمَّا اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام، فقد اختصَّت بهذه الرُّموز مقدِّمةً إليها قيما روحية جديدة.

وهذا هو الذي نتمثَّلُه في الخلق في "ستَّة أيَّام"، في التَّعبيرات الأنترومورفولوجية (المجازية) كَيَدِ الله، صوتِه، وجهه، غضبِه وانتقامِه. وكمثالٍ على ما جاء بين الرُّموز المدروسة، فإنَّ الماء في

(1) Denise Masson, *L'Eau, le feu, la lumière*: d'après la Bible, le Coran et les traditions monothéistes, éd. Desclée de Brower, Paris, 1986.

(2) سمحت الرمزية بإمكانية استخدام صورٍ تمَّ استعارتها من عالم المادَّة، العالم المحسوس، وذلك من أجل التَّعبير عن مفاهيم مجرَّدة، لا يستطيع المعنى احتواءها، ولا العقل البشرية هو قادر على شرحها وتفسيرها، فيتعذَّرُ إذَّاكَ على الانسان استنتاجها والتَّعبير عنها بطريقة أخرى.

(3) Mircea ELIADE, *Initiations, rites, sociétés secrètes,* Paris, Gallimard, 1959, p. 255.

أوجهه المختلفة، يُعَدُّ سبباً في الحياة وفي الموت وفي التَّطهُّر والتَّعميد. فأمَّا كونه رمزا للحياة، فنجده في العرش، وفي الخلق، وفي الشفاء والتَّداوي به. وأمَّا رمزاً للموت، فنعثر عليه حاضراً في الطُّوفان، وفي انشقاق البحر، وركوب الفلك، والرَّعد. كما تناولت النَّار في تجليَّاتها عبر النَّصوص الدينيَّة، كالنَّار المقدَّسة، ونار البرد والسَّلام، والتَّطهير، والعقاب، ووسيلة إقامة العدل بين النَّاس. أمَّا النُّور (الضوء والسراج)، فإنَّه لا يلبث أن يتجلَّى هو الآخر عبر الشمس والقمر، ومواقيت الصلاة والحج، كما تناولت النُّور من خلال التقاليد الدينيَّة الانجيليَّة والقرآنية معا، ثمَّ اختتمت في الأخير موضوع النُّور وعلاقته بالوحي التَّوحيدي.

تقول نيكول دي بونتشارا: لقد عمدت في دراستها لرموز الماء والنار والضَّوء إلى الإشارة في الواقع إلى الأديان الثَّلاث. كان هدفها الرئيس من ذلك أن يصل كلُّ شخصٍ إلى فهم الآخر[1].

5 ـ باب مفتوح على حديقة مقفلة: القيم الجوهرية والتقليدية لمجتمع في قلب التَّطور، مراكش 1939 ـ 1989

قسَّمت الكاتبة هذا الكتاب[2] إلى قسمين: قسم خاصٌّ بالإطار السياسي الذي عاشت فيه، وقسمٌ خاصٌّ بالحياة

(1) Marie-Christine Gambart, *Denise Masson, la dame de Marrakech.*
(2) Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé.*

الاجتماعية التي خاضتها. فأمَّا القسم الأوَّل فقد تناولت فيه موضوع التَّعليم والعمران والصِّحة والفنون والثقافات زمن الانتداب الفرنسي، ثم تحدَّثت فيه عن نقاط الالتقاء بين المجتمع الفرنسي والمغربي، كما تحدَّثت عن الكاثوليكيَّة بالمغرب. وتناولت في القسم الثَّاني سيرتها الخاصَّة بها التي انسحبت على ما يقارب خمسين سنة. يقول جان ديجو:"الباب المفتوح" هي الشهادة لخمسين سنة عيشت في مراكش؛ خمسين سنةً من الاصغاء اللافت، من نقاشات مع الأُسَر المغربية ودراسات جادة للغة العربية، والقرآن والتَّفكير الدِّيني للمسلمين، (...) لقد عملت الكاتبة على فهم الآخر من خلال اللقاءات المثمرة والعمل على الوتر الإنساني أكثر من الرُّوحي، العنوان الجانبي لكتابها "القيم الجوهرية والتقليدية لمجتمع في قلب التَّطور، مراكش 1939-1989 يعيد إطار الجزء الأول من حياة الكاتبة، كموظَّفة في خدمة حكومة الانتداب الفرنسية (...). هذا الجزء وإن كان وصفيًّا فإنَّه لم يمنع الكاتبة من الاستسلام لأفكارها الشَّخصية، وحتى لانتقاداتها فيما يتعلق بكثير من المواضيع المطروحة كالمسيحية والانتداب[1]. أمَّا الجزء الثَّاني، فهو الجزء الأكثر تعبيراً عن حياتها الخاصَّة وهو الذي يُعتبر في كثير من فقراته مصدر صياغة سيرة دونيز في هذا الكتاب.

(1) Déjeux Jean, "Denise Masson Porte ouverte sur un jardin fermé", 1989. *In: Hommes et Migrations*, n°1123, Juin-juillet 1989.

الفصل الثاني: ترجمة القرآن

من بين أهمِّ منجزات دونيز ماسون وأطروحاتها المتميِّزة ترجمتها للقرآن الكريم التي صدرت سنة 1967 بدار غاليمار للنَّشر بباريس. وهي ترجمة قامت بإعدادها لفترة انسحبت على قرابة الثلاثين سنة. ولقد نال هذا المنجزُ إعجاب الكثيرين من العرب والمستشرقين فـ "على الرغم من كونها استندت بقوة على ترجمات سابقة كتلك التي أنجزها ريجيس بلاشير، إلا أنها أنجزت النص الفرنسي الأكثر سهولة من حيث القراءة، وتظل ترجمتها الى يومنا هذا الأكثر مبيعا والأكثر إقبالا، بالنظر الى أسلوبها السَّلس والمتقن، وجودتها الأدبية العالية. إن عملها هذا يُعدّ، بلا شك، أكبر تتويج لها، كونها يسَّرت تدبّر معاني القرآن الكريم للقارئ الفرنسي[1]. ولقد جاء في الفيلم الوثائقي[2] أنَّ هذه التَّرجمة تحقَّقت بناء على تشجيع السُّلطات المغربية لها بغية مواصلة التَّرجمة بعد أن أصدرت كتابها الأوَّل القرآن والوحي اليهودي-المسيحي.

---

(1) سمير لطفي، المرجع السابق.

(2) Marie-Christine Gambart, *Denise Masson, la dame de Marrakech.*

1 ـ إعجاب المهتمِّين بالترجمة

في الرسالة المؤرَّخة بربيع 1967 بدرب زمران بمراكش[1] نقلت دونيز انطباعاتها إلى صديقها ماركوس حول ما جاء في الصّحف والجرائد من مقالات وقراءات عن ترجمتها للقرآن، وهي رسالة تستحقُّ أن تنقَلَ كاملةً في هذا الكتاب. تقول:

"لا يمكنني مقاومة إحساس السعادة وأنا أشاطرك المشاعر النابعة عقب صدور "القرآن". ترجمتي هي ثمرة ثلاثين سنة من الخبرة، قضيتها وسط المدينة في مراكش، على إثرها فهمت القرآن معايشةً. أنت الوحيد الذي أخبرني أن تجربتي في الحياة أنارت كتاباتي. أمامي ترتع كومة من الرسائل ومقالات صحفية؛ وبما أنك كثيرا ما تسافر، فليس بمقدورك الحصول على الصُّحف. ها أنا أنقل لك إذاً ما كتبه لي روبر ليفاك، وهو رجل إنساني، كاتب وأستاذ الفلسفة في مراكش: "*بفضلك، أصبح القرآن كتابا مفهوما. شهادة لا رجوع عنها؛ ما كان يبدو لُبْسًا اتّضَح. سيكتشف القارئ، مأخوذا بالأسلوب الذي أَلْبَسْتَه نَصَّ السُّور، إشراقةَ جمالٍ منقطعةَ النَّظير؛ فينبهر مأخوذا!*". ولقد كتب مقالا رائعا في المجلَّة الفرنسية الجديدة، هذه بعض المقاطع منها: "لم يحدث قطّ وإلى الآن أن أغرمت بترجمة واحدة للقرآن، أو بالأحرى، ما تصفَّحتُ ترجمةً من التَّرجمات التي أحبطتني إلا وفقد الكتاب المقدَّسُ (القرآن) في عيني

(1) Nicole de Pontcharra, pp. 55-60.

مصداقيته، لكن تجلَّى فجـأة انتصار على حين غرَّة في بداية سنة 1967. تتجَّدد معجزة الوحي، منذ الآن، تلتحم كلمة الله مع النص الفرنسي، شيء لا يصدّق!

أنقل لكم أيضا خواطر تقديرية كتبها جان غروجان، معطيا الإجابة القاطعة للتَّعليق الـمُلَغَّمْ، الذي جاء به في "لوموند" أحد النَّاشرين، مترقِّبا وجود منافسة حادَّة، كما هو نفسه التَّعليق الملغَّم الذي جاء أيضا في رسالة الأستاذ بلاشير، الملأى غضبا وضغينة. تمثَّلت إجابة غروجان في قوله: إنَّ *لهاتين الترجمتين قيمةً تكاملية*.

بالنسبة لي فهذه الفكرة ممتازة إذ يُشرَك معي بلاشير فيما يعدُّ بمثابة عملٍ ذي قيمة تكامليَّة.

تُـخصّص صحيفة "لوموند" نصف صفحة لجورج غوردان الذي يتحدّث عن ترجمتي "الممتازة"، وهو الآخر، لا يتأخر عن تحديد رتبنا، أنا وريجيس بلاشير، غير أنه لا يصوِّرنا كندّين، بل على العكس من ذلك.

أحببت المقاربة بقلم ر. س، المنشورة بـمجلَّة إبلا[1]، معبرا في المعنى نفسه: يمكن للجمهور الفرنكوفورني أن يعتبر نفسه محظوظا بفضـــل هاتين التَّرجمتين: ترجمة ر. بلاشير وترجمة

(1) إيبلا هي مجلة معهد الآداب العربيَّة الراقية المؤسَّس من قبل الآباء البيض بتونس سنة 1937. انظر الصفحة 17.

د. ماسون. في رأيي فهما لا يؤديان الدَّور ذاته. الأولى تظلُّ ضرورة تخدم المختصِّين المتمكِّنين من النَّص العربي، لدقَّتها وملاحظاتها التِّقنية. أمَّا الثَّانية فسوف تكون، وصدِّقوني في ذلك، أفيد وأمتع لجمهور واسعٍ ليس من ذوي الاختصاص.

لاشكَّ أنِّـي أكرِّر الكلام، لكنِّي أعلمُ بأنَّك تولي اهتماماً بالغاً لأقوال المختصِّين حول ترجمتي. كتب فيليكس آران، صديق لي من جامعة كولمبيا، عالم، مستعرب ورجل إنساني؛ كتب يقول: "*قرآنك رائع . أظُنُّها الترجمة الوحيدة التي تعيد فعلا انِطباعات النص الأصلي*".

رسالة أندريه شْديد الرَّائعة تحدثني عن "أستاذنا المشترك" لويس ماسسينيون. ورسالة عابد توملیلين، التي أراحتني بشكل غير معهود. والأخ جيل (لم أعهد في حياتي أن اِلتقيتُ مجموعة من العلمانيين والقساوسة في مِثْلِ همّتهم واهتمامهم، مقترحين أفكارا ومعلومات عن المغرب وعن المشاكل التي تعرفها الكنيسة) – حريصٌ دائما ومتحمِّسٌ، قد بعث إلي برسالة مؤثِّرة.

أندريه شوراقي الذي تعرفونه، نائب عمدة مدينة القدس، كتب إلـيَّ معبرا عن إعجابه. سمعت السيِّد لحبابي، عميد كلية اللغات بالرباط، يتحدث في الإذاعة المغربية عن ترجمتي للقرآن، بكلِّ حرارة واحترام. كتبتم إليَّ أنكم سمعتموه. ينشر في مجلة "دراسات فلسفية وأدبية"، وهو عضو في الجمعية المغربية للفلسفة، مع نجيب بلدي، وعلي أومليل، وجوزيف شنو، وجان فيراري.

السيد لحبابي مستعد لنشر المقال النَّقدي لترجمتي بقلم فيليكس أران في مجلة هيسبريس.

يورِدُ جاك بوا بـمجلَّة "المسيحية الاجتماعية" التَّشجيعات التي أمطرني بها لويس ماسينيون، قائلاً: "عملك وصبرك قد كُلِّلا بثمارهما. لعلك أتممت هذه التَّرجمة العظيمة التي من خلالها ألمس دعواتك المطلقة للإله، وهي أغلى ما تكون بالنسبة إلي".

بحكم اشتراككم، فأنتم تقرؤون في مجلة "الغرب المسلم والبحر المتوسط"، مقال فيليكس آران الرائع، بموضوعية وذكاء نقدي لا مثيل لهما. أحبُّ ملاحظته التِّي تشير إلى أنِّـي أكنُّ للقرآن أعظم تبجيل، واتِّصالي اليومي بالمسلمين جعلني أتغلغل في الروح.

يتحدث جاك ميركانتان، في الجريدة الأدبية عن نص واضح، صارم، منسجم بشكل كامل مع لغتنا ويبرز الجانب الشديد، أحيانا الـمُركِّز لدرجة التَّدقيق، في النص الأصلي.

لم تكن فرنسا الوحيدة التي علَّقت على هذه التَّرجمة. ألمانيا تحيِّي على صفحات نشرة فريبور، "الفلسفة وعلم الأديان"، هذا العمل كوسيلة اشتغال المختصِّين في الدين الإسلامي، والعلماء المسيحيين"، وهي تقدم ترجمتي. الإطراء نفسه عاينتهُ، من قبل قسم المكتبة الشرقية بالمعهد الهولندي. أما إسبانيا، فقد أعربت عن مدى استمتاعها بهذه الترجمة، في مقال

طويل، نشرته جمعية المستشرقين الإسبانية. جامعة لندن، هي الأخرى، تقدِّم إطراءاتها في نشرة "مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية".

في حين أن العالم الإسلامي، يخصِّص صفحة كاملة منتقدا بشدة ترجمتي وترجمة بلاشير. يتحدث عنِّي كما لو كنت رجلا! في هذا الصدد، تنشر "ليكسبراس" مقالا ساخرا تحت عنوان: "النَّوع الأدبي والقرآن". يتساءل حول توقيعي فقط بأول حرف من اسمي، ويجد ذلك مبعثا للشَّك حول هويتي. وبالتالي، وما دام الأمر كذلك، فلا يستحق التَّعليق. تعلمُ أنَّ هذا لم تنطَوِ عليه نيَّتي ولا نيَّة غاليمار.

نُشر في جريدة "المجاهد" مقالٌ يبدو بدقَّةٍ أقلَّ ولكنَّه نقدي، ينتظر كاتبه، قدور محمساجي، ولادةَ مسلمٍ، جزائري، من الجزائر الثَّورية الاشتراكية، يستطيع أن يقدم ترجمة تنقل للعالم الغربي، الرِّسالة الحقيقية التي جاء بها النَّبي، وآخر، بتعليق حكيم، يهزُّ العالم الإسلامي من غفلته، هو صانعها وضحيتها.

(...)

كلُّ هذا، لم يكن سوى لمحة عن ردود أفعال، ما تلبث حتى تثلج صدري، وأنا أعمد إلى مشاطرتك هذه السعادة. هي أيضا تنسيني الرسالة الفظَّة التي بعث إلي بها بلاشير، مع أنه رحَّب ترحيبا واسعا بكتابي الأول، في 1958. كما كتبت لك

مرارا، يوجد دائما نماذج سابقة، تفتح السبل أمامنا، وتمكِّننا من السير أبعد بشكل آخر. أعترف أن ترجمة بلاشير أعانتني في إعداد ترجمتي، بيد أنها لم تكن سوى وسيلة من بين وسائل أخرى"[1].

أمَّا كونستان هامس[2] فيقول: (...) يجب القول إنَّ ترجمتَها هي دون شك أقربُ ما تكون للرُّوح والأفق الدِّيني للقرآن مقارنة مع ترجمات ثقافوية كترجمة: "ر. بلاشير" أو أخرى لغوية كترجمة: "أ. شوراقي". تُفضَّل ترجمتُها لبساطة لغتها الفرنسية الكلاسيكية وصحَّتها، مقارنةً مع ترجمات ذات لغة فرنسية مشوَّهة كترجمة: "م. حميد الله". ولقد أبدى كونستان تحفُّظا إزاء ما يعتبره خطأً في ترجمة دونيز، التي تنقل اسم الجلالة "الله" إلى العربيَّة تحت مسمَّى "الرَّب". وهي ترجمةٌ لا تفي بالغرض المطلوب، لأنَّ مفردة "الله" تختلف بنيتها ثقافيًّا عن الرَّب، يقول: "التَّحفظ الوحيد الذي نبديه على جميع التَّرجمات، ما عدا بالطَّبع ترجمة "أ. شوراقي"، هي تسمية "الله" بـــ"الرَّب"، فرضية فيها من التَّعصب ما يَظْهَرُ على كل المستويات، بدءا باللَّفظ اللغوي، فهل "الله" اسم علم أم اسم ذات؟ فهو معرّف بالألف واللام، يُعتبَرُ اسم

(1) انظر المرجع السابق، الصفحات نفسها.

(2) Hamès Constant., "Masson (Denise) Porte ouverte sur un jardin fermé". *In: Archives de sciences sociales des religions*, n°78, 1992. pp. 244-245.

مؤنَّث لغويًا لكنَّه مذكَّر اجتماعيًّا، أبعد ما يكون عن الاسم المشتق من المسيحيَّة اللاَّتينية، "ديوس" الإغريقي. في الفيلم الوثائقي[1]، يتحدَّث الأب جاك لوفرات وهو دكتور في علم الأديان وقسِّيس ببني ملال بالمغرب عن هذه الإشكاليَّة مدافعاً عن وجهة نظر دونيز، قائلاً: من خلال ترجمتها للقرآن، عرفت دونيز ماسون كيف تعبِّر بشكلٍ جيدٍ عن البعد الرُّوحي. لقد اختارت كلمة "ديو (Dieu)" بدلاً من كلمة "الله"، وتسببت بذلك في جدل بين المسلمين. فلو استخدمت مفردة الله لوقع الأمر على إله المسلمين فقط، بينما مفردة (Dieu) هي مفردة جامعة[2].

---

(1) Marie-Christine Gambart, *Denise Masson, la dame de Marrakech.*

(2) قدَّمت دونيز ماسون قراءة لاسم الجلالة "الله" في مقابل ما ورد من أسمائه بالكتاب المقدس، وذلك في الصفحة 276-278 من كتابها باب مفتوح على حديثة مقفلة. تقول: لدى المسلمين فكرة عالية عن اللاهوت فكثير من المسيحيين في وقتنا بإمكانهم أن يحسدوهم على شعورهم العميق بالتَّسامي الإلهي فالمؤذن يذكِّرهم بشكل متكرِّر، بدعوته إيَّاهم للصلاة خمس مرات في اليوم "الله أكبر". هو خالق الكون والقهار والملك ومحاسب العباد على أعمالهم وهو من يعاقبهم أو يجزيهم في حياتهم الآخرة على قدر أعمالهم الصَّغيرة منها والخفيَّة ومالك كل شيء، هو سبحانه الرحمن الرحيم. يعلم كل أعمال البشر لا شيء يخفى عليه وكلُّ شيء بقدرته. هذا ما يُترجم في "المكتوب" لا أحد يستطيع تغيير الأحداث الصَّغيرة التي تقع كل يوم، مقرَّة مسبقا ومرادة من قِبَلِ الله العزيز. من هذه الفكرة المفعمة بالعظمة ولدت عادةُ ترديدِ اسم الله أَلفَ مرَّة يوميا.

هذا يأخذنا الى تحديد أصل الاسم الذي من خلاله أوحى الله به لـمحمَّد وهذه نتيجة أبحاثي الخاصة: علماء الآثار واللغويين متَّفقون على تأكيد أن=

ويكشف الأب جاك لوفرات من جهة أخرى عن سرٍّ نجاح ترجمتها خلافاً للتَّرجمات السَّابقة في كونها ترجمة ذات بعدٍ روحيٍّ. يقول: "والفرق الذي يكمن بين ترجمة من يشتغل على الإسلام من علماء ومستشرقين، وبين ترجمة دونيز ماسون، هو

= اسم إيل هو الاسم الإلهي المشترك الأكثر استعمالا من قبل الشُّعوب السامية. ونجدها في العهد القديم مستعملة كاسم علم وهي "إيلي" كما هو أيضاً في الدعاء الذي نطق به المسيح وهو يموت على الصليب. فـ"إيلوها وإيلوهيم" تنحدران كما يبدو من الصيغ المشتقَّة من "إيل". ويظهر الاسم الإلهي "إيل" في القرآن في بداية أو نهاية بعض أسماء العلم مثل إلياس، إسماعيل، وإسرائيل، إلخ. ونجد أيضا في القرآن على شكل "اللَّهم" علامات للصيغة القديمة "لبَّيك اللَّهم" وكانت هذه تلبية قريش قبل محمد (وهو ما يقوله الحجَّاج وهم قادمون إلى مكة). الاسم "إله" في القرآن يعني أيضا إله الوحي الموحَّد لله، فأبناء يعقوب قالوا لأبيهم في القرآن: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، البقرة: 133.

كذلك فقد تمَّ إضافة أداة التعريف "ال" للصِّيغة القديمة لإله ليصبح الاسم "الله" الذي من خلاله يعبِّر المسلمون عن الله الواحد وصيغة "إله" تعبر عن أي معنى كان للألوهية، وهي تظهر في الشَّهادة "لا إله إلا الله". ويردِّد المسلمون ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، البقرة: 136.

نستذكر ههنا الوصيَّة التي احتوتها الشَّريعة الموحاة إلى موسى بسيناء وهي "لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً " الخروج: 20-7، تثنية: 5-11]، ففي معنى الاسم الموحى الى موسى في حادثة الوادي المقدَّس امتلاءُ الذَّات "أنا هو من أنا". هو من قال للنبي "أَنَا إِلَهُ أَبَائكم إِلَهُ إِبْرَاهيمَ وإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يعقُوب"، الخروج: 3-15.

Voir Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé*, pp. 276-278.

الايمان، وإذا كانت ترجماتهم علميًّا جيِّدة، فإنَّها لا تمتلك بالضَّرورة تلك الحساسية الدينية التي أحبَّها العلماء المسلمون في ترجمتها"[1].

لا نجد لدى النُّقاد العرب إلا بعض الانطباعات هنا وهناك، ولكنَّها انطباعات محدودة نظرا لقلَّة الباحثين في مجال التَّرجمة من العربية إلى الفرنسية.

نقرأ لمحمَّد أكماضان في مقاله[2] الذي يحمل عنوان "تعامل مترجمي القرآن الكريم إلى الفرنسية مع الأعلام ولاسيما ذات الصلة بالأديان السابقة" استحسانا جاء على النَّحو التَّالي: "تتميَّز ترجمة دونيز ماسون ببساطة أسلوبها، وبعدها عن الترجمة الحرفية، وحرصها على أداء المعنى مع مراعاة خصائص اللغة الفرنسية التَّعبيريَّة. فجاءت ترجمتها بريئة من التكلّف والتّعقيد؛

(1) المرجع نفسه.

(2) في هذا المقال، يقدم الكاتب دراسة شبه مقارنة حول طريقة تعامل المترجمين مع الأعلام القرآنية من خلال تحليل نقدي لبعض من النماذج كما وردت في الترجمات الفرنسية، واختلاف المترجمين في التعامل معها يدل على صعوبة نقل الأعلام القرآنية لديه. فالإتيان بالاسم الفرنسي الذي يقابل -أو يفترض أنه يقابل- العلم القرآني المراد نقله يعتبر في حدِّ ذاته إشكالا، فقد لجا بعض المترجمين إلى ترجمة معنى العَلَم القرآني ترجمة وظيفية يسمح بها السياق كما في ترجمة عزيز مصر. انظر تعامل مترجمي القرآن الكريم إلى الفرنسية مع الاعلام ولاسيما ذات الصلة بالأديان السابقة، د. محمد بن محمد أكماضان، ص10، بحث منشور على شبكة الانترنيت:
https://download-pdf-ebooks.online/files/download-pdf-ebooks.org-1466094249-881.pdf

سواء في الألفاظ أو المعاني، فهي سهلة سلسة الأسلوب بحيث يستطيع أن يفهمها ويستسيغها كل قارئ عادي له حظٌّ وسط من معرفة اللغة الفرنسية حتَّى وإنْ لم يكن من ذوي الاختصاص. ولكن يؤخذ عليها قلّة بضاعتها في العربية وفهمها السَّطحي لكثير من الآيات تبعا لذلك، وعدم رجوعها إلى التّفاسير المعتمدة عندما يشكل عليها الفهم، أضف إلى ذلك أنها بالمقابل كثيرا ما تلجأ إلى الكتب الدينية السابقة، من توراة وغيرها، تستعين بها على فهم الآيات المتعلّقة بأخبار الأمم الماضية، أو تستقي منها المادة اللازمة للتّعليق على ترجمة هذه الآيات وتسويغ اختياراتها[1].

كما نجد لدى فوزية العشماوي - في مقالها الذي صدر بمجلة العربي، والذي يعطي صورة واضحة عن تاريخ ترجمة القرآن بأوروبا- انطباعاً جيِّداً حول ترجمة دونيز ماسون التي تضعها في مصاف التّرجمات الأحسن صياغةً والأجدر بالقراءة، كما تضعها أيضاً على قدم المساواة مع ترجمة أخرى نالت استحسانا عربيًّا واضحا، تقول: "ونحن نشيد هنا بالترجمة الفرنسية التي أنجزها الدكتور محمد حميد الله،[2] الأستاذ بجامعة اسطنبول الصَّادرة عام 1959 والتي اعتمدها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنوَّرة، كذلك نشيد

(1) المرجع نفسه، ص 10.

(2) وهي ترجمة أعابها كونستان هامس في مقاله المنشور سنة 1992. انظر:
Hamès Constant., "Masson (Denise) Porte ouverte sur un jardin fermé", pp. 244-245.

بالترجمة الفرنسية بعنوان Le Coran inimitable التي قامت بها المستشرقة الفرنسية السَّيِّدة دونيز ماسون عام 1967، وقد جاءت هذه التَّرجمة أقرب ما تكون إلى النَّص الأصلي العربي، حيث تمّت المحافظة على المعنى واللغة الأجنبية في الوقت نفسه[1].

2 ـ دوافع الترجمة

إنَّ أقلَّ ما يقال عن مشروع إعادة ترجمة عملٍ أو كتابٍ أن يكون المترجم غير راضٍ عن عملِ أسلافه، أو غير مقتنعٍ بها، ولو كان كذلك، لما سعى إلى ما يراه استكمالا للنُّقص واستدراكاً للخطأ. ولعلَّ ترجمة دونيز للنَّص القرآني إنَّما هي أيضاً بحثٌ عن الارتقاء بالنَّص الدِّيني المثالي إلى ترجمة تكون على قدر مثاليته لغَةً وروحاً. نتبيَّن هذا الموقف من خلال انتقادها للتَّرجمات الفرنسيَّة للنُّصوص اللاتينيَّة، تقول الكاتبة: "كما أنّي أتألّم لوجود ترجمة فرنسيّة غير أمينة ولا متقنة فُرضت علينا اليوم من خلال "القدَّاس" باللاَّتينية، تتسَّم أحيانا بالغموض وبقربها من الزَّندقة. وكلُّ هذا بسبب سوء ترجمة توجيهات الفاتيكان. وقد تلقَّيت في هذا الصَّدد خطابا من الأب جان بوتان، مدير جريدة "لاكروا"، مؤكِّدا على ضرورة التَّميز بين الفاتيكان وكثيرا من ترجماته، الراجعة إلى *"انحلال كثير من أعضاء الكنيسة"*.

(1) كيف تعامل الغرب مع القرآن الكريم؟، فوزية العشماوي مجلة العربي، يناير، 2007.

في الواقع، لم تكن الترجمة لدى دونيز غايةً في ذاتها، وإنَّما وسيلة من بين الوسائل التي تساعدها على فهم الإسلام والقرآن معاً، فهي ليست خياراً، بل فرضت نفسها في إطار تقريبها بين الدِّيانات الثلاث. فلا يكمن الدَّافع الأساسي الذي أوحى لدونيز بترجمة القرآن في التَّعريف به للقرَّاء الفرنسيِّين فحسب، إذ كانت -وهي تنظر إلى أبعد من ذلك بكثير - في غنى عن استهلاك جهد إضافيٍّ لا طائل منه البتَّة، لاسيما من خلال ما سبقها من ترجمات كتلك التي أنجزها معاصرها ريجيس بلاشير. "لقد انبعثت لديها ضرورة ترجمة القرآن عندما كانت مجبرةً على إثراء كتابها الذي يحمل عنوان "القرآن والمصادر اليهودية المسيحية". لقد كان ذلك نارا أشعلت فتيل رغبتها الأكثر عمقاً كما تقول"[1].

في مقال أنجزه رالف ستيهلي وهو باحث أنجز أطروحة دكتوراه حول صحيح البخاري سنة 1995 بجامعة بوردو الثَّالثة، يتَّضحُ أنَّ ترجمة دونيز هي أيضا عبارة عن مقارنة للنُّصوص السماوية، يصف عمل دونيز الباحث عن هذه التَّوازيات بشكل مختصر، فيقول:

"إنَّ اقتدار دونيز ماسون على تأليف كتاب رسمت فيه جداول شاملة حسب الرِّوايات التي قدَّمها القرآن والإنجيل والعديد من القصص التوراتيّة راجعٌ -في الأساس- إلى

(1) Nicole de Pontcharra, p. 29.

التَّوازيات السَّماويَّة الواردة بكثرة في القرآن[1]. وهذه الحقيقة لم تفلت الكُتَّاب من المسلمين: فمحمّد حميد اللّه في ترجمته للقرآن الكريم يعطي لكلّ آية قرآنيّة ما يشير إلى وجودها في النَّصين المقدَّسين. نودّ أن نعطي مثالين على القصص التوراتيّة أو المسيحيّة الموجودة في القرآن الكريم، السّورة 18 والسّورة 12 .

في بداية السُّورة، هناك قصّة تسمّى بقصّة "أهل الكهف"، وهي قصّة الفتيان السَّبع الّذين غفوا لمدّة ثلاث مائة وتسعة أعوام واستيقظوا بعد نومهم الطّويل. قُدّمت يقظتهم من قِبل القرآن كمثالٍ عن يوم البعث والنُّشور الذي سبقت معرفتُه أوانَها في عالمنا هذا. اعترف الطَّبري، وهو مفسّر كبير للقرآن في القرن التّاسع الميلادي، بالطّابع المسيحي لهذه القصّة. فهي تروي مآل شباب من مسيحيّي أفسس الّذين ناضلوا ضدَّ وثنيّة عصرهم. ويذكر الطَّبري حتّى أسمائهم: ماكسيمليان، ديونيسوس، أودينيس، جامبليك، مارتل، إكسكوستوديان، بيرونوس، أنتونان، بالإضافة إلى اسم الكلب: كالوس[2].

(1) Ralph Stehly, « La familiarité islamo-chrétienne », in *Revue des sciences religieuses*, 87/2, 2013, p. 161-177.

(2) وقد وردت أسماؤهم عند الطبري على هذا النَّحو: مكسلمينا ومخشلمينا ويمليخا ومرطونس وكَشْطُونس وبيرونس وديموس وبطيوس وقالوس. أما ما جاء بالفرنسية التي ترجمنا عنها فأغلب هذه الأسماء تتوافق مع رواية الكنيسة البيزنطيَّة.

هذه القصّة موجودة أيضا في التّقاليد المسيحيّة، في خطبة جاك دي ساروج (توفّي في 521م، وفي مخطوطة[1] ساشو[2] السريانيّة، المؤرّخة ما بين القرنين السادس والثامن ميلاديَّين. إنَّ ما يثير الانتباه في القصص القرآني هو ذلك الجوهر التّلميحي الذي لا يقدِّم سوى لوحة تاريخيَّة نستخلص منها دروسا في رفض الوثنيَّة، في قوّة اللّه الخالق الباعث للنُّشور، كما لو كان من المفترض أن تكون القصَّة معروفة لدى السَّامع من ذي قبل وأنّ الواعظ (القرآن) لم يتذكّر إلاّ الخطوط العريضة"[3].

3 ـ منهجية التَّرجمة

ولقد سبق وأن ذكرنا في المقدِّمة خلاصة نظرة دونيز للتَّرجمة من زاوية علاقتها بالمجتمع. فنقلها للقرآن إلى الفرنسية

---

(1) إن مخطوط ساشو الذي يحمل رقم 321 قد تمَّ العمل عليه من قبل أرثر ألغيار. انظر:
Arthur Allgeier, Die älteste Gestalt der Siebenschläferlegende», Oriens Christianus, NS 1916/6, p.i1-43.

(2) كارل إدوارد ساشاو مستشرق ألماني: (20 جويلية 1845–17 سبتمبر 1930). درس اللغات الشرقية في جامعات كييل ولايبزغ، حصل على درجة الدكتوراه في هاله عام 1867، وأصبح بعدها أستاذاً للفلسفة السامية (1869) وأستاذًا في جامعة فيينا (1872)، وأستاذًا في جامعة برلين عام 1876. اهتمَّ في عمله باللغة السريانية واللهجات الآراميَّة الأخرى، و كان خبيراً بموسوعة "البيروني" الفارسية. عمل كمستشار في تخطيط وإنشاء محطة سكَّة حديد بغداد. نذكر من بين طلابه المعروفين يوجين ميتوتش، مؤسس الدراسات الإسلامية الحديثة في ألمانيا.

(3) Ralph Stehly, p. 161-177.

إنَّما كان من الباطن أو من داخل نسيج المجتمع المغربي. وقد سمح لها اقترابها من هذا المجتمع على فهم خلفيته الرُّوحية التي مصدرها الإسلام والقرآن. ولقد أوردت دونيز الكثير من الشَّهادات بخصوص هذا الموضوع. تقول مثلاً في إحدى رسائلها التي نشرتها لها نيكول دو نتشارا:

"يعود الفضل في ترجمتي إلى الوسط المغربي، إلى نشاطاتي كممرِّضة أين تعرَّفت على مؤمنين مسلمين، لقد تقرَّبت كثيرا من إيمانهم النَّابض قبل أن أدرس الإسلام انطلاقا من الكتب".[1]

وفي هذا الصّدد يقول آرين الذي كان قريبا جدًّا منها: "...أضفى تمهيد غروجان في مقدّمته للتّرجمة إنصافاً كبيراً إلى جانب توضيحها ببصيرة عالية للمشكلات النّاشئة عن الاختلافات العميقة بين دلاليّة اللّغات السّامية وبين لغات العرب ودلاليّة مصطلحاتنا الهندو – أوروبّيّة؛ لاسيما المتعلّقة بالزّمن والشّكل. لإيجاد حلول لها كان لابد لماسون الّتي تقيم في وسط مدينة مرّاكش أن تتمتّع باتّصالات يوميّة مألوفة مع المسلمين لسنوات طويلة، إضافة لتأمُّلاتٍ في النّصّ الدّيني، وهو ما أتاح لها الدُّخول في عمقه، وأن تستقي أجواءه الرّوحية لإعادة النَّظر فيه بشكل شبه بديهيّ كما لو كان نوعاً من التّناسق مع لغتها الأم، ذلك أنَّها امرأة تتحسَّسُ النّص في الفرنسيَّة أكثر من تحسُّسها إيَّاه وهي تترجمه، وهو ما يميِّز عملها عن باقي

(1) Nicole de Pontcharra, p. 85.

التّرجمات الحصريّة ذات الأهداف العلميَّة البحتة"[1].

ويجدر بنا الإشارة إلى ما تستحقُّه هذه التَّجربة من اهتمام علميٍّ وأكاديمي ينبغي أن ينصبَّ على تطوير علوم التَّرجمة، انطلاقاً من إشكاليَّة تُصاغُ حول مدى أهميَّة المجتمع لغةً وثقافةً وتعايشاً في التَّأثير على مجرياتها، حتَّى وإن كانت لغة المجتمع غير متطابقة تماماً مع اللُّغة التي نترجم بها، كما هو الحال بالنسبة للهجة المغربيَّة مقارنة بالعربيَّة الفصحى.

وعلينا ألا نغفل عن موضوع يليق بأن يكون محور دراسات أكاديميَّة، وهو الجانب الحضاري في الترجمة. فدونيز لم تكن مترجمة لغوية للنُّصوص المقدَّسة، بل كانت أيضا مترجمة للمشاعر الانسانية أمام المرضى، مترجمة لدينٍ إلى دينٍ آخر، وهو ما أفرز لديها حبًّا كبيرا نحو الآخر. تقول:

"كيف يمكننا الوصول في ظلِّ عالم تشعل الرَّغبة في السُّلطة نارَ المواجهة والتناقض والتنافر، إلى أن ننمِّي روح الحوار، لنتشبَّثَ بالسِّلم؟ (...) إن دراستي للدِّيانات الثَّلاث، وترجمتي للقرآن التي فرضت نفسها علي، وتطبيبي للمرضى، كلها تنبثق من إرادة واحدة: إرادةُ المحبة، المعراج الرُّوحي المطلوب، طريق المثاليَّة الذي تتحدَّث عنه تيريز دافيلا. يتمثَّلُ موقفي من

(1) Arin Félix., "Le Coran, traduction de Denise Masson". *In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,* n°3, 1967. pp. 199-202.

هذا في أن نعمل أيضاً على أن يكون الحوار بين الدِّيانات مستمرًّا في ظلِّ الاحترام المتبادل، دون تماهٍ بينها ودون انصهار[1].

4 ـ انتقاد التَّرجمة

ولقد تناول ترجمتها الكثيرُ من المهتمِّين بالدِّراسة والانتقاد، فمحمد أكماضان يعيب عليها عدم رجوعها إلى التَّفاسير القرآنيَّة، يقول: "لم تستشهد -حسبما اطَّلعنا عليه من ترجمتها- إلا بتفسير واحد وهو تفسير البيضاوي. وطريقتها في الترجمة تعكس فيما يبدو نظرتها للإسلام الذي تعدّه امتدادا لليهودية والمسيحية وحلقة من حلقات الديانات الكتابية التي تتفق كلها في جوهر العقيدة التّوحيدية. وهذا التصور قد يكون صحيحا إلى حدٍّ ما، ولكنه لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة مهمة، وهي أنَّ للإسلام -عقيدة وشريعة- خصوصيات تميِّزه عن سائر الأديان بما فيها الكتابية. ولمّا كانت هذه الخصوصيات تتجلَّى أكثر ما تتجلَّى في القرآن الكريم، فعلى المترجم أن يبذل قصارى جهده لإبرازها والتَّعبير عنها في لغة الترجمة، وذلك -مثلا- عن طريق اعتماد أفضل التَّفاسير لفهم الكتاب الكريم، ونقل معانيه والمفاهيم والمصطلحات الإسلامية التي يتضمَّنها نقلا دقيقا أمينا يميِّز بينها وبين المفاهيم التي تشبهها في الدِّيانات الأخرى. وهذا عندنا هو النَّهج السَّليم في نقل معاني القرآن الكريم، وهو نهجٌ

(1) Nicole de Pontcharra, p. 23.

يخالف كما ترى النَّهج الذي سارت عليه دونيز ماسون، حيث لم تستطع -أو لم ترد- التَّمييز في ترجمتها بشكل واضح وصريح بين المفاهيم والمصطلحات الإسلامية (زكاة، صلاة، صدقة، إلخ)"[1].

أما فيليكس أران[2] فيقول: بعد عدد كبيرٍ من التّرجمات[3]، نُشِرت ترجمةٌ جديدةٌ لكتاب المسلمين المقدّس في السِّلسلة المشهورة "لابلياد" الّتي كانت قد نشرت في وقت سابق العهد القديم وأعدّت ترجمة للعهد الجديد لاستكمال ترجمة الكتاب المقدّس. وستتيح هذه المجموعة لقرّائها الاطّلاع على الكتابات المقدّسة في الأديان التّوحيديّة الثّلاث الكبرى: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام.

---

(1) المرجع نفسه، د. محمد بن محمد أكماضان، ص10.

(2) حصل فيليكس أران على دبلوم في الدراسات العربية والفارسية والتركيةٍ سنة 1908، وعلى شهادة الدكتوراه في القانون بباريس سنة 1909. تمّ تعيينه بمصالح القضائية للحكومة بتونس على ان يكون مترجما قنصليا بالمغرب. واصل بحوثه في مجال العمران من وجهة نظر قانونية وسوسيولوجية (الصيغ العمرانية لدى الجبليين بالجنوب التونسي). في عام 1913، اجتاز مسابقة مفتِّش للحكومة في المجال القضاء الخاص بالسكان الأصليين، ما سمح له بشغل منصب في المجالس القضائية التونسية. التحق فيما بعد بالجنرال ليوتي الذي خصص له مستحقات شهرية. عاش بالمغرب واشتغل محاميا بمراكش سنة 1920 ومترجما أيضا. كان قريبا من دونيز ماسون، ولعب دورا كبيرا في معالجتها أثناء مرضها بالتيفوئيد سنة 1938 حيث كان يقضي كلّ ليلة بالدويرة؛ الغرفة المخصَّصة للضيوف، انظر الفصل الخاص بوباء التيفوئيد.

(3) Arin Félix., pp. 199-202.

هل تُعَدُّ صحيحةً تلك المقولة الإيطاليّة المشهورة: "إنَّ "التَّرجمة تعني الخيانة"؟ مهما يكن من أمر، فإنَّ هناك أكثر من طريقة للخيانة، وإذا كان الزَّمن قد تجاوز "الخيانات الجميلة[1]" التِّي كانت تستبدلُ الدِّقة بالسَّلاسة، فلا ينبغي لنا أن نحتاط من الحرفيّة الوضيعة للنصّ والّتي تقود بدورها إلى فرنسية غير مفهومة تُشوِّهُ النَّص وتقلبه بشكلٍ مضرٍّ نحو معناهُ المعاكس. ما نسعى إليه هو إعادة إنتاج النّصّ بتطابقه الشّديد مع المعنى.

---

(1) هي عبارة أطلقت على نوع من الترجمات التي ظهرت في القرن السابع عشر بفرنسا، وذلك عندما فرضت الفرنسية نفسها كلغة بأوروبا، فصار لزاما أن تكون الترجمات مرافقة لهذا التَّوسع اللغوي. لم يكن هدف هذه الترجمات لاسيما فيما يتعلق بالنُّصوص التُّراثية الإغريقيَّة والرومانية هو نقل المعنى فحسب ولكن أيضا لإثارة إعجاب القرَّاء، بل وأحيانا بقوم دعاتها بتجميل النَّص حتى يغدو غير قادر على نقل المعاني البذيئة التي عادةً ما نجدها في الروايات والقصص. وأهم رائد في هذا المجال هو نيكولا بيرو دالبلانكور (1606-1664). سميَّت هذه التِّقنيَّة والمذهب معا بـــ(belles infidèles) ويمكن أن نترجمها بـــ"ـــالخيانات الجميلة" أو بـ"ـالخائنات الجميلة". استشهد أوستايّ في بداية تمهيد ترجمته للمزامير الواردة بالصّفحة 42-43 من المقّدمة: "ثمَّة وفاءات خائنة. إنَّ الوفاء الحقيقي يرتكز على نقل محتوى النَّص الأصلي برمَّته إلى اللّغة الصّحيحة للترجمة، إنَّ النّقل بطريقةٍ غير واضحة لا يعدُّ ترجمةً. أمَّا القدّيس جيروم فلم يكن يريد أن يجعل الكتاب المقدّس باللّفظ اللّاتيني فحسب بل أيضاً لاتينيّاً". تمَّ الإشارة لذلك تمام الإشارة في مستهلِّ النُّسخة الجديدة المترجمة للقرآن وهو تمهيد موفق كما يقول آرين أشاد بها فيه كروجان قائلاً " نعم اللّغة الفرنسية واضحة". انظر: Arin Félix., pp. 199-202.

(...) بالرّجوع إلى ترجمتها للقرآن الكريم، نلاحظ أنها أوردت سوراً وآياتٍ بشكلٍ واضح ومنظّم مع إضافاتٍ وُضعت لتشير إلى تغيّرات المعنى أو إيحاءات النّصّ ومشكّلةً مقاطع موسيقيّة أو شعريّة. فشكل النّصّ موجز وراسخ ومباشر ويعيد إليه وتيرته وحركته الّتي تضفي عليه نبرة خاصّة وإيقاعاً خاصّاً، إلّا أنَّ الوقع الموسيقيّ للّغة العربيّة شيءٌ مستحيلٌ تحقيقهُ (...) كانت التّرجمة في ذات الوقت ذات حيويّة عالية ونقلٍ دقيقٍ للنصّ كما لو كانت انعكاساً لخطابٍ إلزاميٍّ ملح في بعض الأحيان، ونصًّا شعريّاً قوياً في أحايين أخرى، وقولاً بسيطاً في دقّته وتشريعه أيضاً.

من وجهة النَّظر هذه، لا يمكن القول إنَّ عملها كان دونيّاً؛ فقد ابتدأَ بمقدّمة غنية جداً، مُرفقة بخرائط تعرض انتشار الإسلام في العالم وتداخلها الجغرافيّ والإحصائيّ في المناطق المختلفة والتّوزيعات الحالية، ثمَّ بجدول يشير إلى نظام التّسجيل المعتمد وبملاحظةٍ مفتاحيّةٍ على شكل مفردات محدّدةً عدد النقاط الّتي في حاجة إلى التّوضيح (...)[1].

(1) يضيف آرين قائلاً: بالتأكيد من الصعب تجنُّب بعض الأخطاء الّتي سقطت فيها سهواً. لن نسهبَ بالحديث عن الأخطاء المرتبطة بعلامات التّرقيم كالفاصلة على الأقلّ أو الأكثر، ذلك لا يهم. بالنّسبة للإملاء ونسخ الكلمات العربية، كنّا نودُّ أن يكون لدينا خيارٌ أكثر دقّةً بين الكتابة المعتادة والدّارجة ونظام النّسخ المعتمد كذلك المراعاة الدّائمة لذلك النظام في المصطلحات غير فرنسيّة. =

من الأفضل أن نُنوّه بتعاطف كبير بكونِ نسخة القرآن هذه تبدي احتراما عظيماً للكتاب الّذي يخبر النّبي والّذي يعظِّم المسلمون كلام الله فيه. ذلك التّعظيم يشمل شخص النّبي محمد (Mahomet) كما اعتاد الغرب على تسميته في الدّين الإسلاميّ. الاهتمام العظيم والمحمود في حدِّ ذاته وعدمُ جرح مشاعر

= إنَّ كتابة كلمة القرآن (Coran) والإسلام (Islam) والله (Allah) هكذا دون أيَّ شكل آخر مثل (Qur'an) (Allãh) (Islãm) هو مقبولٌ جداً ومن الجيد جداً أيضاً كتابة كلمة مكّة بهاتين الصّورتين: (la Meque) (Meeke) (في اللّغة العربيّة تلفظ مكّة Makka من دون أداة تعريف)، لكن لفظنا لاسم النّبي محمد بهذا الشكل Muhammad بدلاً من هاتين الكتابتين Mahomet أو Mohammed قد يبدو منطقياً مع وضع نقطة تحت حرف h.

وأيضاً عندما نختار نظام النّسخ وهو نقل الكلمات صوتيًّا إلى الافرنسية (الصّفحة 93)، فمن المناسب الالتزام به ولكن قد لا يكون ذلك دائماً مناسباً وبما أنَّ الأحرف الّتي عليها علامة تستبدل في غالب الأحيان بنصوص تنتمي لنظام آخر. ومروراً بأسماء علم مشهورة كعليّ (Ali) عائشة (Aïcha) أبي بكر (AbouBekr) وعثمان (Othman) وقد تكون صوتيَّة هذه الأسماء مقلقة جداً للبعض، ومن الثابت جداً عدم حذف أداة التّعريف أو حرف الجرّ أمام الكلمة البادئة بـ (aïn) والّذي هو حرفٌ ساكن وتحويل (l') المرتبطة بأداة التعريف إلى حرفٍ شمسيٍّ في بداية الكلمة التالية.

حول هذه الصّفحة 93 نلاحظ أنه من غير المفترض أن يكتب دائماً حرف الألف بهذه الطّريقة (a) وإنّما (u، i،a) فهو حرفٌ يتغير لفظاً بالفتحة والضّمة والكسرة ومن غير الممكن أن تلفظ أحرف الواو والياء لفظاً طويلاً أو قصيراً إلّا بقدر ما هي أحرف علّة ولكنّها تلفظ بذلك الشكل عندما تلعب دور الأحرف الساكنة. ختاماً يتّضح لنا في الصّفحة 42 أنّه ما لم تخنَّا الذاكرة فإن اسم أحد المعلّقين على القرآن الكريم يكتب بهذا الشّكل (Khamskhchari) لكنّهُ في الواقع يبدأ بحرف (Z).

المسلمين أو إهانة أحاسيسهم وصل لحدٍّ الامتناع؛ ليس فقط عن نقده؛ بل عن عدم إعطاء حكمٍ ولحدٍّ التّسليم ببعض الجوانب الّتي يبدو أن واقع موضوعيّتها العلمية لا يقبل التّجاهل.

5 ـ الرَّد على انتقادات التَّرجمة

إنَّ الانتقادات التِّي وُجِّهت لها ليست مبنيَّة بالكامل على أسس علميَّة بقدر ما هي مبنيَّة على حساسيات تجاه المترجمة. ولعلَّ بعض المستعربين من كان يكنُّ لها بعضاً من المقت نتبيَّنه من خلال رسائلها، فهي تقول عن بعضهم:

"مَنْ، مِنْ بين هؤلاء الأشخاص المتعلِّمين، مَن يسمح بإعانة نصرانيةٍ مثلي "غير جامعية"، وتقطن، على حد تعبيركم، أطرافَ الصحراء، بالمغرب الأقصى؟ كنت كثيرا ما يساء الترحيب بي من قبل المستعربين، علماء الأديان والمختصِّين في المسائل اليهودية. اشتغلت إذن حسب إمكانياتي، لوحدي، لكن لم يكن يغشاني إلاَّ دعم ونصائح أصدقاء أوفياء ومتنورين"[1]. لقد تضجَّرت د. ماسون أيضاً من انتقادات جمال الدِّين بن شيخ للتَّرجمات كلها التي أنجزت حول القرآن محمِّلةً إياه خطأ وقوعه في الأنانية إذ يعتقد أنَّه ليس هناك أجمل من ترجمته وأحسن وأوفى.

وتقول في رسالة أخرى: "هناك الكثير من الأشياء التي لا أفصح عنها باعتبارها بديهيَّة، لكن أن أُنتَقَدَ في إبقائي سرًّا على

(1) Nicole de Pontcharra, pp. 70-71

علاقة ترجمتي بالتَّرجمات السَّابقة فهذا لا يعني شيئا في مقابل ما أشرت إليه من أسماء أفادتني في إنجاز ترجمتي التي لم تكن لتُستَكْمَلَ لولا ترجمة لويس مارتشي؛ الذي اكتشفت له سنة 1938 أهـــم أعمالـــــه اللاتينيـة بعنوان "مقال في رفض القرآن" (*prodromus ad refutationem* alcorani)، ولولا ترجمة ريجيس بلاشير، ولويس غاردي، لولا متابعة جون غروجون لي، ووقوف لويس ماسينيون إلى جانبي. لقد كثر اللَّغط بخصوص هذا الموضوع دون سبب كافٍ لذلك. كلُّ مترجم، في الواقع، يستند إلى عمل أسلافه، ويختار من بينهم من يراه الأكثر جدارة حتَّى يستكمل بفضله ترجمتَه الخاصة به إبداعاً وتفكيراً[1].

6 ـ نموذج من النَّقد الأكاديمي العربي لترجمتها

ولإعطاء نموذج عن الدِّراسات التي قُدِّمت عن ترجمة ماسون[2]، فإنَّنا نقترح -رغم قلَّتها وندرتها[3]- إيراد دراسة

---

(1) Nicole de Pontcharra, p. 29.

(2) حسب اختبارات الباحثة للطبعات، فإنَّنا قمنا بتبنِّي ترجمة القرآن التي قامت بنشرها دار غاليمار للنَّشر كمرجع يعود إليه القارئ كلما أراد التأكد من آية قرآنية باللغة الفرنسية. وهذا المرجع هو كالتَّالي:
Le Coran édition de D. Masson, Préface par J. Grosjean, Paris, Bibliothèque del la pléiade, éd Gallimard, 1967.

(3) وكثيرا ما أثارت ترجمة ماسون للقرآن اهتمام الباحثين الجدد على المستوى الجامعي مثلا، وذلك من خلال رسائل الماجيستير التي نوقشت في مجال علم التَّرجمة. وسنأخذ على سبيل المثال الجزائر أين ناقشت=

جيِّدة قامت بإنجازها الباحثة ليلى دكوكة[1] من جامعة وهران بالجزائر، وسنقتصر على الأهمِّ مما جاء فيها متصرِّفين في فقراتها وتنظيم أفكارها بما يوافق منطق التَّحليل، ومحتفظين، في الوقت نفسه، بأسلوبها وطريقة التَّعبير لديها. وسنضمُّ أسفل الصَّفحة مراجعها ومصادرها دون أن يكون ذلك مدعاةً منَّا في اعتمادها بقائمة مراجع هذا الكتاب.

= عام 2008 الباحثة زمرُّدة بوشاقور موضوعها في مجال التَّرجمات المقارنة بكليَّة الآداب واللُّغات بجامعة منتوري بقسنطينة إذ عقدت مقارنة بين ترجمة كلٍّ من أبي بكر حمزة الجزائري، محمود حميد الله ودونيز ماسون وذلك في أطروحة بعنوان "أسلوب الالتفات وترجمته إلى اللغة الفرنسيَّة- دراسة نقدية مقارنة من خلال ثلاثة نماذج لترجمات القرآن الكريم". كما ناقشت بحشاشي ياسمين وهي باحثة أخرى بالجامعة نفسها رسالة لنيل درجة الماجستير في علم الترجمة بعنوان "ترجمة معاني ودلالات أسماء السور القرآنية من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية"، حيث قامت فيها بتبنِّي منهج المقارنة دارسةً ترجمةَ كلٍّ من كزيمرسكي، حميد الله وماسون وذلك عام 2009. أمَّا قسم الترجمة بجامعة وهران فقد عرف مناقشة سريسر مليكة عام 2012 أطروحة لنيل شهادة الماجستير بعنوان: "ترجمة معاني القرآن الكريم عند دونيز ماسون: دراسة تطبيقية". ولعلَّ هذا الإقبال الأكاديمي والعلمي على دونيز ماسون من قبل الباحثين الشَّباب إنَّما إشارة واضحةٌ إلى ما سيكون لديها من حظوةٍ واهتمامٍ في مستقبل الأيَّام.

(1) رسالة أكاديميَّة قدَّمتها الباحثة دكوكة ليلى من معهد الترجمة بجامعة وهران بعنوان "ترجمة الوجوه والنَّظائر في القرآن الكريم عند دونيز ماسون - دراسة تطبيقيَّة-" وهي رسالة ناقشتها عام 2015، والأطروحة موجودة بمكتبة وهران الجامعية. ولقد قمنا باقتطاع جزءٍ من دراسة هذه الباحثة انطلاقا من الفصل الثَّاني: ترجمة بعض النماذج من الوجوه و النظائر إلى اللغة الفرنسية، ص41-54.

تدرس الباحثة طريقة ترجمة دونيز ماسون في ظلّ موضوع الوجوه والنَّظائر في مجال الأسماء. ويعتبر موضوع الوجوه والنَّظائر أحد أهم الظواهر اللغوية التي يزخر بها القرآن الكريم؛ كظاهرة التَّقابل، والتَّرادف، والمتشابه، حيث ترد المفردات في لفظ واحد، في عدَّة مواضع من القرآن ولكن بمعان مختلفة. وتعتبر هذه الظاهرة عائقا كبيراً أمام المترجمين.

ومن بين الأسماء التي احتملت عدَّة وجوه عند المفسرين ذكرت الباحثة لفظة "اللِّباس". وقد ورد جذر هذا اللفظ في القرآن الكريم باختلاف بناه الصَّرفية ثلاثًا وعشرين مرة. ويمكن ردّ الاستعمالات القرآنية للفظة "اللّباس" إلى ستَّة استعمالات رئيسية، كلٌّ استعمال ينطوي على معنى خاصٍّ به، فنجد معنى الخلط، واللباس بعينه، والسَّكن، والعمل الصالح، والتشبيه، والشَّك.

أ) ففي الوجه الأول من اللِّباس ما ينطوي على معنى الخلط[1]، كقوله تعالى في الآيتين التاليتين: ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾[2]، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[3]، وتفسير الأولى: لمَ تخلطون بين الحق والباطل بإلقاء الشُّبَه والتحريف والتبديل[4]؟،

(1) بن سلام، يحي : التصاريف، تح هند شلبي، مؤسسة ال البيت الملكية للفكر الإسلامي، ب ط، 2008 ، ص183.

(2) سورة آل عمران، الآية 71.

(3) سورة الأنعام، الآية 82.

(4) الصابوني، محمد علي: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط4 1402هـ/ 1981م، م1، ص:902.

بينما تفسير الثانية: لم يخلطوا إيمانهم بالشرك[1]. والواقع أنَّ التَّرجمة لدى دونيز جاءت على هذا النَّحو:

Pourquoi ***dissimulez*** -vous la Vérité sous le mensonge?

Ceux qui croient et ceux qui ne ***revêtent*** pas leur foi de prévarication

تقول الباحثة: قدَّمت ماسون ترجمة تأويلية للفعل "لبس" في هذا الوجه ولم تحافظ تماما على بلاغته، لكنها حاولت - إلى حدٍّ ما- نقل الرسالة من خلال استعمال لفظ يحاكي المعنى الأصلي للقارئ باللغة الفرنسية انطلاقا من مقابلة هذا اللفظ بالفعل "*dissimuler*" (أخفى) في الآية الأولى وبالفعل "*revêtir*" (ألبس) في الآية الثانية، كما نلاحظ أنها حافظت على الزمن المضارع في الفعلين وقد استعملت الترجمة عينها في الآية 42 من سورة البقرة، ونلاحظ -تقول الباحثة-، أنَّ الفعلين وردا بمعنى التَّغطية والإخفاء لأمر ما، ما لا يتوافق مع ما جاء في تفسير الوجوه والنظائر لهذه اللفظة. ولذلك، كان يستحسن لو أن المترجمة وظفت الفعل "*confondre*" في ترجمتها للآيتين. لذلك نقترح ترجمة أخرى للآية الأولى، وهي:

1- Pourquoi confondez-vous la Vérité avec le mensonge?

2- Ceux qui croient et ceux qui ne confondent pas leur foi d'oppression.

---

(1) الصابوني، م1 ، ص 403.

ب) أمَّا الوجه الثاني فجاء بمعنى: السكن[1] كقوله تعالى في الآيتين التاليتين: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾[2]، و﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[3]. وتفسير الأولى: قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي سكنًا"[4]، وتفسير الثانية عند ابن عبَّاس: "هَّن سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهنَّ".[5]

ولقد جاء عند الطَّبري في أنَّ وصف الليل باللِّباس إنَّما هو تشبيه من حيث يستر الأشياء فصار لهم ستاراً يسترون به كما يسترون بالثياب التي يكتسون بها[6]، وجاء عند ابن عاشور أنَّ اللَّيل كان وقاية من أخطار الاعتداء، وأنَّ العرب كانت لا تغير على بعضها البعض في الليل، ثمَّ إنَّ الليل محلُّ راحة الإنسان ولذلك فقد شُبِّه باللِّباس أيضاً[7]. وبهذا فإن معنى اللباس في الآية الأولى هو السكن لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾[8].

---

(1) بن سلام : التصاريف، ص 183

(2) سورة النَّبأ، الآية 10.

(3) سورة البقرة، الآية 187.

(4) بن الكثير :أبي الفداء إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمّد السلامة، دار طيبة لنشور ز التوزيع، السعودية، ط1999، م8 ، ص 303.

(5) الصابوني، م1 ، ص122.

(6) الصابوني، م2 ، ص365 :

(7) بن عاشور، محمد الطاهر: تفاسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ب ط، 1984، ج 30، ص:203.

(8) سورة الأنعام، الآية 96 .

وجاءت الآية الثانية مُناسَبة لترخيص الجماع، شُبِّه فيها كلٌّ من الزوجين لاحتوائه الآخر باللِّباس الذي يحتوي لابسه، وقال الزَّجاج: كلُّ فريق منكم يسكن إلى صاحبه ويلابسه[1]، والسَّكن: المرأة لأنَّه يسْكَن إليها" [2]. وذلك لقوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[3]. ونلاحظ من خلال هذا العرض أنَّ استعمال لفظة "اللباس" في الآيتين جاء بمعنى السَّكَن، والسَّكَن: كلُّ (ما يسكن إليه). وجاءت التَّرجمة لدى دونيز على هذا النَّحو:

Nous avons fait de la nuit un *voile*.

Elles sont un *vêtement* pour vous, vous êtes, pour elles, un *vêtement*.

لقد انشغلت ماسون في الآية الأولى بتوضيح الصُّورة البيانية المتمثلة في التَّشبيه البليغ عن نقل المعنى الذي هو الغرض من الترجمة، ونلاحظ أنها اعْتمَدت التَّأويل في ترجمة لفظ "اللِّباس" في هذه الآية من خلال توظيف مفردة "voile" والتي تعني "حجاب"، غير مكترثة بمكوِّنٍ دلاليٍّ مهمٍّ أبرزه سياق اللفظة وهو الذي يؤدِّي إلى دلالة السَّكينة، وبمقارنتها مع التَّفسير، نرى أنها ترجمة غير موفقة تسبَّبت في خسارة المعنى الصحيح وفي تشويه المعنى الأصلي، لأنّها لا تنقل المعنى المنشود.

(1) ابن منظور: لسان العرب، م6، ص:302.
(2) نفس المرجع، م13، ص:212.
(3) سورة الأعراف، الآية 189.

أما في الآية الثانية فلجأت ماسون إلى التَّرجمة الحرفية مستعينة مجدَّدا بالمقابل "vêtement"، الذي استعملته كذلك في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، ويظهر الفرق بين ما يحمله هذا المقابل من أثر وبين ما يحمله السكن من راحة وطمأنينة. ويبدو تأثر ماسون بالاتجاه الحرفي في الترجمة واضحا إذْ لم تأبه للتَّغيرات الحاصلة في معنى اللباس في السياقات المختلفة. وتلاحظ الباحثة أن التَّرجمات الثلاث خلت من مكون السكينة، ولهذا نرى أنّه كان يستحسن لو لجأت المترجمة إلى استعمال المكافئ اللغوي "apaisement" في هذا الوجه، وذلك لأنّ هذا اللَّفظ -بعيدا عن خصوصية اللُّغتين- يفي بالغرض من الترجمة مقارنة مع ما جاءت به ماسون من حيث إنّه يقربنا من المعنى المطلوب.

ت) أمَّا الوجه الثَّالث فبمعنى الثِّياب التِّي تُلبَس[1]، كقوله تعالى في الآية التالية: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِى سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾[2]، أي أنزلنا عليكم لباسين: لباسًا يستر عوارتكم، ولباسا يزينكم[3].

إنّ ما يتسنى لنا ملاحظته من الوهلة الأولى -تقول الباحثة-، هو أن اللِّباس جاء في الآية ليبين منَّة الله على عباده بأن أنزل

(1) بن سلام : التصاريف، ص 184.
(2) سورة الأعراف، الآية 26.
(3) الصابوني، م1 ، ص 436.

عليهم لباسا يستر سوءاتهم ويتزينون به، ثم لتحذيرهم من وسوسة الشيطان في الآية التي تليها وذلك بمناسبة ما قصَّ الله عليهم من تعرِّي أبويهم حين بدت لهما سوءاتهما[1]، والتَّمهيد لقوله تعالى ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[2] يبين أنَّ اللِّباس في هذه الآية إنَّما هو اسم لما يلبسه الإنسان ليستر به جسده أو جزءا منه وجاءت ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ صفة للِّباس. وتكون لفظة اللِّباس في هذا الوجه من التَّرجمة قد توافقت بين دلالتها اللغوية ودلالتها السِّياقية، حيث اعتمدت ماسون في ترجمتها للفظة "اللِّباس" فيما يخص هذا الوجه على التَّرجمة بالمكافئ الشَّكلي:

Nous avons fait descendre sur vous un *vêtement* qui cache votre nudité et des parures;

ث) أمَّا الوجه الرَّابع فجاء بمعنى: "العمل الصالح" كقوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾[3]، قال ابن عباس: هو العمل الصالح[4]. قدَّمت ماسون ترجمة حرفية لجملة ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ حين قابلتها بـ "Le vêtement de la crainte"، في الجملة المترجمة التاليَّة:

(1) بن عاشور :تفاسير التحرير و التنوير، ج8 ، ص 72.
(2) سورة الأعراف، الآية 31.
(3) سورة الأعراف، الآية 26.
(4) ابن الكثير، تفسير القرآن العظيم، م3 ، ص 401.

Mais le ***vêtement*** de la crainte révérencielle de Dieu est meilleur!

حيث أنها لم تحافظ تماما على بلاغة هذا اللفظ وفصاحته. ولم نلمس في عملها -تقول الباحثة- معنى العمل الصالح الذي تضمَّنه النص الأصلي، وأمّا استعمالها للفظة "la crainte" كمقابل للتَّقوى فلا يمكن أن نصفه بغير الموفَّق لانعدام لفظة تقابلها في اللغة الفرنسية بذات المحمول الدلالي، لكن كان من الأحسن لو أنها أضافت النقل الصوتي (Taqwâ) إلى جانب" la crainte" لأجل التَّوضيح. ولهذا تقترح الباحثة الترجمة التالية:

Le bon travail de la dévotion (Taqwâ)

ج) أمَّا الوجه الخامس فجاء بمعنى التَّشبيه[1]، كقوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[2] أي لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكًا، لكان على هيئة رجل لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه[3]. لقد جاءت هذه الآية بمعنى (ولو جعلناه ملكا لشَّبهنا عليهم ما يشَّبهون). وقد جاء السِّياق ليدعم هذا المعنى من خلال قوله في الآية التي سبقت هذه الآية: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[4]، والشَّاهد في

(1) بن سلام : التصاريف، ص 184.
(2) سورة الأنعام، الآية 9.
(3) ابن الكثير :تفسير القرآن العظيم، م3 ، ص 24 .
(4) سورة الأنعام، الآية 8.

الأمر أنه حتى لو أنزل الله عليهم ملكًا لأنزله في صورة رجل، والمعنى على التشبيه حيث يقول ابن عاشور: "فإذا تشكل فإنما يتشكل في صورة ليطيقوا رؤيته وخطابه، وحينئذ يلتبس عليهم أمره"[1]، أي يشتبه عليهم الأمر ويختلط.

ونلاحظ -تقول الباحثة- من خلال هذا الشَّرح أن المترجمة أساءت فهم الآية حيث جاءت ترجمتها بمعنى (ولبسناه كما يلبس البشر)، وتجدر الإشارة إلى أنه يصعب تقديم ترجمة حرفية لهذه الآية بحيث تحافظ على المعنى، والأكيد أن المترجم، في مثل هذه الحالات، يواجه إشكالا في اختيار الطريقة الترجمية المثلى، فاعتماد المترجم التصرف الحر وفقا لتأويله الخاص قد يدفع إلى سوء تقدير المعنى الكامن في النص الأصل، إذا لم يستطع فهم مقصد المؤلف فتتسم لذلك ترجمته بتحريف المعنى وتشويه الدلالات الكامنة وراء المفردة أو النص. ونقترح لذلك التَّرجمة التالية:

"Nous l'aurions fait ressembler ce qui leur apparaitre semblable"

ح) أمَّا الوجه السَّادس فجاء بمعنى الشَّك[2]، كقوله تعالى في الآية التالية: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ

(1) بن عاشور : تفاسير التحرير و التنوير، ج7 ، ص 145.
(2) بن سلام : التصاريف، ص 185.

جَدِيدٍ﴾[1]، أي: بل هم في خلط وشبهة وحيرة من البعث[2]، وجاء في ترجمة دونيز ما يلي:

Avons-nous été fatigué par la première Création! Non!. Cependant, ils ***doutent*** d'une nouvelle création !

نسجل، تقول الباحثة، أن ماسون قد وفقت في اختيار المقابل المناسب حين قابلت مفردة "لبْسٍ" بمفردة "doutent" التي تعني في اللغة الفرنسية "الشك"، كما نلاحظ أنّها لجأت لتقنية الإبدال (la transposition) لأنّ المفردة في اللغة العربية جاءت على صيغة اسم لكن المترجمة نقلتها في اللغة الفرنسية على هيئة فعل، الأمر الذي يعود لخصوصية تركيب الجملة الفرنسية.

على هذا النَّحو، تسعى ليلى دكوكة في أطروحتها إلى تناول نماذج أخرى كما هو الحال في مجال الأفعال كـ"ضرب" على وجوه دلالاته الخمس، وفي مجال الظروف كمفردة "وراء" على وجوه دلالاتها الست، وفي مجال الحروف كـ "لعلَّ" على وجوه دلالاتها الثَّلاث[3].

(1) سورة ق، الآية 15.
(2) الصابوني، م3 ، ص 243.
(3) دكوكة ليلى، ص55-87.

7 ـ مشكلة اسم المترجمة

عندما وضعت دونيز ماسون على لوحة الغلاف الأوَّل من كتابها ترجمة القرآن لقبَها كاملا واكتفت من اسمها دونيز بحرف "دال" فقط، ثارت ثائرة زملائها عليها، فلقد أعاب ريجيس بلاشير ذلك متَّهمًا إيَّاها بأنَّها كانت تريد تقمُّص ثوب الرِّجال الذين يعود إليهم الفضل غالبا في ترجمة القرآن. ويقول سمير لطفي نقلا عن حواراته: "قلَّة قليلة من النَّاس من كانت تدرك أن حرف (دي) يرمز الى دونيز، في الوقت الذي كانت فيه الترجمات المتعددة لمعاني القرآن الكريم ينجزها مستشرقون ومستعربون مرموقون"[1]. يقول جون بيار كوفيل أيضا: كانت تقدِّم نفسها كالآنسة ماسون وتوقِّع مقالاتها (عن الإسلام والمسيحية بصفة رئيسية) بـ"د. ماسون" في صحيفة لوموند بالمجمل. "ترجمة" القرآن المنشور في مكتبة لابلياد (التابعة لدار نشر غاليمار) هو تحفة د. ماسون، حتى أن بعضاً من العقليات المتحجِّرة ذهبَ بالقول: "لو أنَّ علماء الأزهر اشتبهوا في أنَّ ما وراء د. هو "دونيز" لما أعطوها موافقتهم على هذه التَّرجمة التي تطلَّبت ثلاثين عاماً من العمل والتي اعتبروها أفضل محاولة ترجمة للقرآن الكريم (الذي لا يترجم) باللّغة الفرنسية[2].

---

(1) سمير لطفي، المرجع السابق.

(2) Jean-Pierre Koffel, "Denise Masson : paris 1902 -Rabat 1994".

بعض قرّاء صحيفة لوموند كانوا يتحدثون عن د. ماسون على أنَّـها رجل لكن دونيز لم تكن تستاء لذلك كثيراً بل على العكس تماماً.

وفي تعليق غريبٍ لكونستان هامس[1] ومثير للدَّهشة في الآن معاً كتبَهُ بمناسبة صدور مؤلفها "باب مفتوحٌ على حديقة مقفلة" نجدُ قولَهُ الآتي: "إنَّ المؤلِّفة معروفة في مكان بين المثقَّفين الفرونكوفونيِّين في العالم الإسلامي؛ اِسمُها مقترنٌ بترجمة فرنسيةٍ للقرآن، مُعتَمَدةٍ من قبل سلطات إسلامية معروفة، خصوصا الأزهر في القاهرة". ثم يضيفُ قائلا: "يُرْوَى أنَّ الحرف الأوَّل من اسمها يُترجم عادة في العالم الإسلامي بأوَّل حرف من اسم ذكوري كما تقتضيه ترجمة القرآن".

أمَّا آرين فيقول: (...)."دون أدنى شكّ، دفعت الجودة العالية لهذا العمل دار غاليمار لنشره بروح عاليّة حيث كانت سعيدة باختياره مع أن مؤلّفه لم يكن مشهوراً في السَّابق إلا في دراساتٍ مقارنة بين القرآن الكريم وبين عهدي[2] اليهوديّة والمسيحيّة (مجلّدان نشرتهما دار مازينوف "الدار الجديدة" في عام 1958)، ولم يكن منتسباً لأوساط الاستشراق الرسميّة أو من الحاصلين على شهاداتٍ عليا. (...) علاوةً على ذلك، عبّرت

(1) Hamès Constant., pp. 244-245.

(2) نقصد العهد القديم والجديد.

مجلّة الاكسبريس في العشرين من شهر فيفري عن خشيتها الكبيرة من ألّا يثير هذا العمل، إلى حدّ كبير، إعجاب المسلمين النّاطقين باللّغة الفرنسية كون المترجم هو سيّدة وهو ما قد يدفع لإخفاء اسمِها واختصاره للأحرف الأولى منه. في واقع الأمر، ومن الواضح وببساطة ودون تحفُّظ، أنَّ كتابة الحرف الأول من اسمها بالإضافة لكنيتها "د ماسون" دونيز ماسّون جعلت اسمها يمر على أنّهُ اسم رجل[1].

ونفهم من هذا التَّعليق أنَّ سبب اعتقاد القرَّاء في ذكوريَّة المترجمة لا يعود في الواقع إلاَّ إلى الثقافة الشَّرقيَّة التي تجعل من القرآن صوتا -في رأيهم- لا يكون إلا ذكوريًّا. ولا نفهم سبب هذا التَّحامل ولا نعي على من تمادى المستشرقون فيه: أهو على مترجمة القرآن، أم على القرآن المترجمِ نفسه، أم على المؤسَّسات الدَّاعمة للتَّرجمة؟

(1) Arin Félix. "Le Coran, traduction de Denise Masson". pp. 199-202;

الفصل الثَّالث: مختارات مِمَّا كُتبَ عنها

ونورد في هذا الفصل بعض ما جاء من شهادات في حقِّ المؤلِّفة، وهي شهادات تسمح لنا باكتشاف الوجه الآخر من شخصيتها. ولقد قمنا باقتطاع هذه الشَّهادات من مقالات صحفية وأدبيَّة نقديَّة، ومن مشاهد من الفيلم الوثائقي. أمَّا المقال الصحفي الذي حرَّره سمير لطفي، فهو عبارة عن تغطيَّة لنشاط قدَّمه المعهد الفرنسي لمراكش يدور محوره حول رياض الحفظي الذي تحوَّل اسمه إلى رياض دونيز ماسون. وفي الواقع، فإنَّ المعهد الفرنسي ينظِّم سنويا إقامة خاصة ببيتها للكتَّاب الذين يودُّون العمل على الكتابة: سيرةً، أو نقداً، أو حتَّى أدبا ورواية.

1 ـ شهادة جون بيار كوفيل:

لعلَّ من بين أهم الشَّهادات التي وردت عن الكاتبة، تلك التي قدَّمها جون بيار كوفيل[1] الذي يقول: "في خمسينيات القرن

(1) جان بيير كوفيل شاعر وروائي فرنسي من مواليد الدار البيضاء بالمغرب سنة 1932، حصل على شهادة التبريز في الآداب الكلاسيكية، وقام بالإشراف على الكثير من الجمعيات الأدبية والشعرية بالمغرب. اشتغل صحفيًّا حيث تعاون مع العديد من الصحف والأسبوعيات، كما كان مديرًا لسلسلة تصدرها دار مرسم للنَّشر. نشر أكثر من عشرة أعمال آخرها رواية بعنوان " حبيبتي دلال" عام 2007، كما نشر رواية أخرى بعنوان=

العشرين[1]، كان ناديها الشبَّان المراكشيون الكاثوليك اليساريون الذين يـحبُّونها بــ"ماسون" فقط، أمَّا الذين كانوا يكنُّون لها احتراماً أكبر فينادونها بالآنسة ماسون. لم يكن لأحد أن يسمح لنفسه بمناداتها بــ "دونيز" فلم تكن تلك حقبة يألف النَّاس فيها بعضهم – على الطريقة الأمريكية - حيثُ كنّا نأخذ سنَّها بعين الاعتبـار، علاماتِ انتمائها لدين المخلِّص ووالدته مريم العذراء، مهاراتِـها الموسيقية – التي تجلَّت وهي تعزف على الأرغن في كنيسة الشُّهداء القدِّيسين في منطقة جليز[2]–

= "مراكش بيزناس" تحت اسم مستعار وذلك سنة 2008. طلب من النَّاشر عدم كشف اسمه إلا بعد وفاته. وافته المنيَّة بالقنيطرة بالمغرب سنة 2010.

(1) ولقد نشرت دار "كراسات شمال إفريقيا" شهادة كتبها جون بيار كوفيل عن ماسون وهي موثَّقة أيضا من خلال نشرها بموقع إلكتروني بصفحة "ثقافة" لمجلَّة "اليوم" الكائن مقرُّها بالدَّار البيضاء تحت عنوان:

Denise Masson, ou le néon ne vaut pas la chandelle(1) et (2).

نشر هذا المقال بتاريخ 09 جانفي 2004، انظر الموقع:

http://aujourdhui.ma/culture/denise-masson-ou-le-neon-ne-vaut-pas-la-chandelle-1-5746

وانظر أيضا المرجع الذي سبق ذكره:

Jean-Pierre Koffel, "Denise Masson : paris 1902 -Rabat 1994".

(2) جليز هو شارع بمراكش. يقول عنه الصحفي المغربي عبد الكبير الميناوي "...إذا كانت ساحة «جامع الفنا» هي أشهر ساحات مراكش، فإن «جليز» و«فرنسا» هما أشهر شوارعها. وليس «جليز» إلا اسم شهرة للشارع الذي أخذ هذه الأيام اسم «محمد الخامس» عنوانا رسميا، عوض تسمية «جليز»، التي يتشبث بها أهل المدينة وزوارها. يمتد شارع «جليز» على مسافة كيلومترين، تقريبا، ما بين باب «النقب»، أحد أبواب مراكش=

وإلمامَها، خاصَّة في لسانيات اللغة العربية.

(...) وصلت إلى المغرب عام 1929 – كان عمرها يقارب السَّبعة وعشرين عامًا، وكانت فرنسيةً كاثوليكية عزباء حيث بقيت على هذا حتى نهاية العمر. توافقت سنة مجيئها بسنة ميلاد الملك المستقبلي الحسن الثاني إذ كانت تحب الإشارة إلى ذلك. وخلال هذه الرحلة السياحية، كما تروي لنا فرانسواز فابيان، "ستأخذ حياتها اتِّجاها مختلفاً عن تلك الفتاة المتعلِّقة بأهلها ذوي الانتماء إلى البرجوازية الرَّاقية لشمال فرنسا". تضيف إلى

= التاريخية، على الجهة المؤدية إلى ساحة جامع الفنا، والبناية القديمة لمقهى «السفراء»، المحاذية لشارع عبد الكريم الخطابي، المفتوح بدوره على «بين القشالي» و«جبل جليز»، أي أنه يوجد خارج سور المدينة القديمة، ضمن حي «جليز»، الذي شيد خلال فترة الحماية، الشيء الذي يعني أن تاريخ الشارع القصير في سنواته لم يمنع أن يصير الشارع أحد أشهر شوارع مراكش والمغرب. وتعود تسمية «جليز»، بحسب البعض، إلى التسمية التي كانت تعرف بها منطقة جبل «جليز»، والتي يقال عنها إنه تم تحويرها من عبارة «أدرار نإيجليز»، التي هي تسمية أمازيغية، إذ تعني مفردة «أدرار «الجبل، أما «النون» فتعرف ما بعدها، فيما «إيجليز» تعريف لحشرة صغيرة الحجم وسوداء. ويمثل شارع وحي «جليز» مقياسا لمعرفة التحولات التي ارتبطت المدينة الحمراء، ما بين بداية القرن العشرين ونهايته، وصولا إلى الحاضر الذي صار متسارعا في تحولاته..." انظر عبد الكبير الميناوي، "*شارعان يلخصان مراكش السياحة والمقاهي والمطاعم وجميع الثرثرات: إيقاع حياة مشرعة على الفرح وراحة البال ولا تلغي التعلق بالذاكرة والتراث*"، نشر بجريدة الشَّرق الأوسط، لندن، الاربعاء 01 جمادى الاولى 1432 هـ الموافق لـ 6 ابريل 2011، العدد 11817.

ذلك فرانسواز فابيان: إنها ممرضة مؤهلة ولكنها لم تفكر أبدًا بترك فرنسا والابتعاد عن أقاربها. بالرغم من ذلك، قرَّرت -وقد كانت تتمتع بإرادة قوية جداً تحت شكلها الهادئ والناعم _ أن تعيش في المغرب وأن تتقرّب -وهي من كانت مسيحية مؤمنة- من العالم الإسلامي لتدرس لغته وتتعمّق في طبيعته الإيمانيَّة. بناءً على معارفها الجديدة أعطت حياتها معنىً أعمق دون أن يؤدي بها ذلك لاعتزال العالم". (...) وبحلول عام 1937 أهدتها والدتها، بالإضافة لسيارة فولس فاغن، المنزل الذي ستعيش فيه حتى نهاية عمرها. منزل يقع في درب زمران في الحي الذي كان يسمى عادةً بباب دكّالة، كان رياضًا يحمل اسم مالكه القديم: رياض الحفظي وكان قصراً صغيراً يقع في الرقم 3 من درب زمران كما تروي لنا فرانسواز فابيان. كما كانت تحب: باب مفتوح على حديقة مغلقة، نهج بين الانغلاق والانفتاح، ... بمنظور جمالي ورمزي لما هو عليه الإسلام بالنسبة لها، ولكم هو رائع عندما نملك مفتاحه!

ها هي ذي تقضي نصف قرنٍ في هذا المنزل الذي يحمل اسمها الآن والذي جلبت إليه أرغُنين لتملأه بالفوغات (ج. فوغا) والترانيم والكنتاتا حيث سيولد بمرور الأيام واللّيالي العمل البطيء لامتلاك لغةٍ (العربية)، ومن ثمَّ نقل القرآن إلى الفرنسية. وعلى هامش "الترجمة"، سيأتي؛ بل أحياناً سيلتجئ إليها الوطنيون (القوميون) المغربيون، معارضو الانتداب الذي لم تكن معاديةً له

بالمطلق. على هامشه أيضا كانت تستقبل أصدقاءها: عالم الجيولوجيا "لويس جانتي" و"الدكتور فرج" وأهله ثم "رضوان كولان" جارها المؤَسلَم والمُؤَسلِم والمستعرب والمستمزغ وعازف البيانو، و"جيل لافوينت" المستمزغ والباحث في الإسلام، و"فرنسواز فبيان"، وعازفة الأرغن "سوزان جيو" و"جان بونوا"... وهم في معظمهم أشخاصٌ يحنّون للماضي. هكذا وُلِدت سيرةٌ ذاتية؛ بل نظرية لما فيها على وجه الخصوص من إضاءاتٍ لتلك العلاقات المعقدة والحساسة بين الغرب المعاصر والمسيحي طبعاً والعالم الإسلامي الشديد الدِّقة والسِّرِّيَّة.

سرعان ما أدركت أنه يجب عليها أن تشير للقرآن كمرجع وفضلت أن تلجأ للنّص الأصلي بدل أن تلجأ لترجمات. وهكذا بدأ المشروع الأكثر جنوناً لوجودها الطويل والغني، ترجمةٌ حتى ولو اقتصر استخدامها عليها فقط، فنتاج الإسلام هذا إنَّما هو نصٌّ شعري ونصٌّ نورٍ بالنِّسبة لها، علاوةً على ذلك تقول وفق علم أصول الكلمات: القرآن هو النور الساطع. هو ذا العمل الطويل والشَّاق الذي تمَّ تنفيذه بشغف نهِم.

أوردُ حواراً جرى في باريس عام 1965 بين دونيز ماسون والناشر روبير غاليمار: " – أنا لست بجامعية،

– لا أهتم لذلك،

– عملت لوحدي،

– لا أهتم لذلك. كم صفحة؟

- لا أعرف، لكن سأعدّهم."

بعد التَّحقَّق، تتَّصل مجدَّدًا بدار غاليمار:

- ثمان مئة صفحة،

- هذا ليس كافياً لـ "لابلياد"، أنا بحاجة لألف صفحة، أضيفي نصوصاً أخرى.

فردَّت دونيز ماسون مشيحةً بغرور:

- لن تضيف شيئاً إلى الكتاب المقدسّ على أيَّة حالٍ! لكني سأكتب لك مقدِّمة بالطُّول الذي تريده"

دار حوارٌ آخر بعد عدة أيام في قسم استقبال دار غاليمار مع حمقاء الطَّابق الأرضي (تقصد سكرتيرة الاستقبال).

- ما الغرض من حضورك؟

-ترجمة القرآن،

-لمن؟

- لي أنا دونيز ماسون،

– أقصد لأيِّ كاتب؟،

- الكاتب ليس محمّد، إنَّه الله.

جميل، يقول ذلك جون بيار كوفيل معلِّقا على الحوار.

إنَّها الشَّاهدة الفخورة بنصف القرن الذي عاشته في مراكش، قد شهدت تغيّر الأوضاع، ليس دائماً في الاتجاه الذي كانت تتمنَّاه؛ بل على العكس تمامًا. إذ نعرف رأيها فيما يخص التَّطور. فالانتداب الذي كان يمكن أن يكون عملاً جميلاً انتهى بفشل مروِّعٍ، وكان الاستقلال بعيدًا كل البعد عن تلبية الآمال المرجوَّة. وفي النَّقد اللاَّذع للعالم كما هو حال هذا المغرب الذي يحرق أفضل أوراقه ويفسد أهم ميزاته ونقاط قوَّته، استطاعت دونيز ماسون أن تعطي، إن لم نقل أفضل ما لديها، كلَّ ما باستطاعتها على الأقل من ازدراء وممارسة للسُّخرية بلسانٍ لاذع بكل ما يحمله ذلك من سوء نيَّة وأخطاء ومقاربات.

لم تكن تتحقَّق من مزاعمها التي تنشر الثَّرثرات المسيئة؛ فلقد تحسّرت على أولئك الأساتذة السَّيِّئين ومستوى التَّلاميذ المتراجع والنُّكت المضحكة التي كانت تُـحكى عن الأطفال. لنتجرأ على القول: إنَّها تبدي تفكيراً تربويًّا رجعيًّا. (...)[1].

إنَّ تخريجاتها في السياسة، علم الاجتماع (السوسيولوجيا)، الديانات التوحيدية، علم الانسان الوصفي (الأنتربولوجيا الوصفية)، اللِّسانيات واللاهوت مجالاتٌ تتلَّذذ بها وهي ترتشفها ككؤوس شايٍ غامق، ولكنها تبقى كؤوسَ شايٍ ليس

(1) لذلك، فلقد كانت تنظر إلى التَّعريب كمشروع مستفرغ من رؤيا اجتماعية واضحة.

إلّا. كم كنَّا نودُّ أن تحدثنا أكثر عن نفسها وعن عواطفها الجمالية وعن أولئك الناس الذين عرفتهم، أن تتصرَّف أكثر كمتفضفضة، ككاتبة بكل ما للكلمة من معنى كما كانت تفعل في بعض الأحيان – الرَّائعة – في هذه السِّيرة الشِّبه ذاتية المعنونة – وهي تشير إلى رياضها في درب زمران-: "باب مفتوح على حديقةٍ مغلقة" (المنشور في دار دسكلي دي بوفيه عام 1989، والمؤلف من 340 صفحة). كتابٌ جامعٌ تدعونا فيه لنرى ونتأمَّل ونتسلّى بنوادر لاذعة في خطابٍ تتخلَّله دروسٌ في اللغة العربية وعلم أصول الكلمات (الإيتيمولوجيا). مستشرقةٌ عنيدة مفعمة بموضوعها الرئيس: العربية، الإسلام والقرآن الذي لا تستطيع مقاومة متعةِ ذكره باستفاضة، في ترجمتها، بالتأكيد. فعلى سبيل المثال، هل تعرفون أن كلمة "فندق" التي تكتب باللاتنية foundouk والتي تعني "أوتيل" (...) أصلها يوناني؟ لا تقول لنا أكثر من ذلك وهي تعطي المعلومة، هكذا، دون الذهاب أبعد من ذلك. فـ"فندق" إذاً أصلها من كلمة "باندوكيون" «pandokéïon» والتي تعني المكان الذي نسكن فيه، الخان (caravansérail)؟ لا نرى تفسيراً آخر.

لنترك الكلمة الأخيرة لفرانسواز فابيان (في رسالة مؤرخة بتاريخ 1994/12/18، بضعة أسابيع بعد ترك دونيز ماسون لـ "معتكفها" الهادئ الواقع في قلب المدينة الحمراء المليء بزقزقة العصافير كحديقةٍ مفتوحة على السَّماء اللاَّمتناهية): "بالرغم من

هيئتها الرَّهبانية وبساطة لباسها؛ إذ كانت غالبًا ما ترتدي الرَّمادي أو الأبيض، كانت دونيز ماسون امرأةً أنيقة تحبُّ أن تحيط نفسها بأغراض ولوحات ثمينة. ألم تكن تملك – إرثاً عن أبيها الذي كان هاويًا كبيراً للفنِّ – نسخاً برونزية مصغَّرة لتمثال "برجوازيي كاليه" (Bourgeois de Calais) التي أهداها لهم أوغوست رودان صديق أهلها؟ أشخاصٌ مخوَّلون أكثر مني باستطاعتهم التَّحدث عن ذكائها وحسِّها النَّقدي الشَّديد الحدَّة. فعلى الرغم من مظهرها الهادئ وصوتها النَّاعم فإن شخصيتها القوية كانت تدفعها للنِّقاش في أغلب الأحيان، لم تكن تترك نفسها أبدا عرضةً للتَّحايل أو السَّيطرة مهما كانت مكانة محاوريها. لقد شهدت في كثيرٍ من الأحيان وأنا مذهولة تلك المبارزات العقلية وتقاطعات الأرواح فيها، حتَّى لو تشبَّث كل واحد برأيه فإننا نخرج دائماً منها أغنى... لقد أغلق باب الـ 3 درب زمران، ولكن الحديقة ستبقى مفتوحةً على السَّماء اللاَّمتناهية".

2- شهادة جريدة مراكش 24 الصَّادرة بالمغرب :

جاء في مقال نُشر بجريدة مراكش 24 ما يلي: "هي امرأة[1] خرجت من صحراء الدُّوغمائية ومن قرى الأحادية نحو حدود

(1) دونيز ماسون.. الفرنسية التي ترجمت القرآن سنة 1938 بباب دكالة في مراكش. جريدة مراكش24، 5 فبراير 2018.
https://www.marrakech24.info/11-1263

جغرافية إنسانية رحبة، أعادت فيها ترتيب المعنى وصياغته، فمن كاثوليكية تخلَّت عن نذورها الأخيرة إلى مستشرقة مستنيرة اختارت حياة المدينة، لتكون مسارها الأبدي، ولتؤسِّس فيه معالم عشق سرياليَّة لمدينة مراكش العتيقة، المدينة التي عشقتها دونيز بشكل سريالي، وترجمت القرآن الكريم بين طيّاتها وفي أحد قصورها. وبذلك تعد دنيز ملكة المعنى، التي قبلت ترجمتها كبار المدارس الدينية. إنّها الفرنسية التي عشقت المغرب وترجمت القرآن في مدينته العتيقة.

إن الحديث عن مستشرقة نقشت اسمها بشكل جلي في دراسة الإسلام وحوار الديانات، تمرين صعب ينبثق من مبدأ الغيرية، ومنظورها الإيطيقي، فهذه المرأة لم تتردَّد في نزع الوثوقية عن مسلماتها وعن حقائق وجودية، لتنفتح على ذاتها وعلى الآخر فرصة للالتقاء به، من خلال دعوتها للحوار بين الأديان السماوية.

كما أن هذه المفكرة العظيمة قد تمكَّنت من خلال استعادة الوجود الحرّ لإنسانيتها الخالصة، وعن طريق وهبها حياتها للدِّراسات الدينية المقارنة ونشر "التفاهم الأخوي" بين الدِّيانات التَّوحيدية من أن تكون من بين الوجوه البارزة التي بالسِّجل التاريخي والحياة الثقافية لمدينة مراكش. فهي زاهدة بأذواق مترفة، صلبة ومرهفة الحس، وهي بالذات التناقضات التي منحتها التَّميز.

لم تكن جامعية ولا مذهبية، وانفتاحها على الثَّقافة المغاربية ينبع من نزعتها لتصوُّرات ومسلَّمات محدّدة لهويَّة صافية، ومن تبنيها لرحابة مكَّنتها من الغوص في معالم المدينة القديمة في مراكش خاصة "درب زمران" الذي اختارت الإقامة فيه منذ سنة 1938، في رياض يحمل اليوم اسمها ويؤرخ لمسارها المتميز الذي دام لأزيد من ستين سنة.

3- شهادة سمير لطفي - وكالة المغرب العربي للأنباء بالمغرب :

أمَّا سمير لطفي فنقرأ له ما يلي: "بأفكارها وشِيَمِها الإنسانية الرَّفيعة والحب الذي تكنُّه للمغرب وللمسلمين، طبعت المفكِّرة دونيز ماسون، التي تعد من أبرز مفكري عصرها الذين اشتغلوا على القضايا المتعلِّقة بالإسلام، ذاكرة من نالوا حظوة العيش بقربها، وخاصَّة من جيرانها بـــ"درب زمران" بالمدينة العتيقة لمراكش، حيث اختارت الإقامة منذ سنة 1938، برياض يحمل اسمها اليوم.

الحبُّ الذي تكنُّه دونيز ماسون أو "فتاة مراكش" كما يحلو للبعض تسميتها، للمغرب والمغاربة، وتعايشها مع الثقافة المغاربية والدِّيانة الإسلامية منذ نعومة أظافرها، أكسبها حبا واحتراما من لدن الجميع، ولاسيما فنَّاني المدينة الحمراء ومثقَّفيها ، وكل الذين اهتموا بأعمالها ومسارها.

وفي تصريح لوكالة المغرب العربي للأنباء، ذكرت السيِّدة

بونتشارا أن دونيز ماسون "كانت متخصِّصة مرموقةً في القضايا المرتبطة بالإسلام وبالعلاقات بين الديانات الكتابية الثَّلاث، غير أنها ليست معروفة بالقدر الكافي لدى الجمهور الواسع"، مشيرة إلى أن اقتراح المعهد الفرنسي بمراكش "وجّه إلى الشّعراء والرِّوائيين الذين يأنسون في ذواتهم القدرة على رسم صورة لدونيز ماسون، من خلال دراسة مسار حياتها والوثائق التي خلَّفتها، وكذا من خلال متخيَّلهم."

وقد ذكرت السَّيدة بول بلانش راديوس (التي حظيت بالعيش بقرب دونيز ماسون) بأن دونيز ماسون كانت أوَّل سيدة التقتها عند حلولها بمراكش في أكتوبر 1957. وعبَّرت السيدة راديوس عن تأثُّرها بطبع دونيز ماسون الميَّالة الى الانزواء بعيدا عن الآخرين، وبالانطباع الذي تتركه لدى الآخر "كامرأة صارمة متَّشحة بالسَّواد، بيد أنَّ هذا المظهر الصارم للسَّيِّدة ماسون كان يخفي، على النَّقيض من ذلك، الكثير من المشاعر الانسانية، وقلبا مفعمًا بالحنان.. إنها ليست فقط "دونيز" المفكرة والمتمرِّسة، ولكنها أيضًا "دونيز المرأة"؛ مؤكدة أنها كانت لها مراسلات مع الراحلة ماسون.

وباعتبارها سيّدة عظيمة ذات مسار متميز، فإن دونيز ماسون كانت من بين الوجوه البارزة التي ارتبط اسمها لوقت طويل بالسِّجل التَّاريخي والحياة الثقافية لمدينة مراكش إلى غاية

سنة 1994، وهو التَّاريخ الذي أسلمت فيه الروح إلى بارئها، برياضها المتواجد في درب زمران وسط المدينة القديمة، الذي ظل يحمل اسمها. (...) لقد وهبت دونيز ماسون، التي لم تكن جامعية ولا مذهبية، حياتها لدراساتها الدِّينية المقارنة ونشر "التفاهم الأخوي" بين الديانات التوحيدية. فهي زاهدة بأذواق مترفة، صلبة ومرهفة الحس، وهي بالذات التناقضات التي منحتها التميز"[1].

4- شهادة محمد حبيب سمرقندي، مدير مجلَّة "آفاق مغاربيَّة" بفرنسا :

في كل مرة، عندما يذهب محمد إلى مسقط رأسه بمراكش، يزور قبر دونيز ماسون تخليدا لذكراها. يصف ذلك على أنَّهُ اعتراف بكل ما تعلَّمه ممَّا أحاطته به حياتها، وخاصة فيما يخص مقابلة المسيحيَّة بالإسلام. يقول: "في يوم جمعة، قامت مجموعات صغيرة من العُمي بتلاوة الصلوات التي كتبها الوليُّ أبو العباس السبتي، كانت دونيز ماسون تتهادى أثناء عملها لهذه القراءات". هذه اللحظة التي تقاسمها معها لا تزال راسخة بذاكرته لقوَّة تأثيرها في نفسه. بحسب قوله، فإنَّها وقّعت على هذا النَّحو: "د. ماسون"، لكونها مرتبطة بوضعيتها كامرأة في المغرب، لقد فضَّلت الاختباء وراء عملها. ترجمة "دونيز

(1) المرجع السابق نفسه.

ماسون" هي الأكثر استخداماً من قبل مسلمي فرنسا ويقرؤها الجيل الثاني الذي لم تُتَح له الفرصة لتعلُّم اللغة العربية.

5- شهادة نيكول دي بونتشارا :

كثيرا ما كانت دونيز ماسون تعبِّر عن مدى إعجابها بالاحتفالات الإسلامية واعتبرت أنَّ الطُّقوس التي تمارسها الدِّيانات عندما تكون حيَّة تؤثِّر عليها سريعًا. ولذلك فهي تعتبر أنَّ المجتمع المسيحي قد تخلَّى عن طقوسه حتى وإن تمَّ الاحتفال بالجانب المظهري أين يتم تجريد الايمان من بُعْدِه الرُّوحي، لدرجة أنَّه لم يعد لها ما تظهره من عاطفة تجاهها. كانت تتعلم انطلاقا من الناس عاداتهم وثقافاتهم، كان شهر رمضان الكريم شهرًا مميزًا لدونيز ماسون، حيث كانت تشاهد عدَّة أجيال، بين أجداد وأبناء وأحفاد، وهي تجتمع لتتناول الإفطار في حضن العائلة، لم تكن تلك فرصة للتَّأمُّل، إنَّما أيضًا كانت مناسبة تقتسم فيها معهم إيمانها بالله، الله الأحد، وكانت تقول: "إنَّ للمسلمين والمسيحيِّين إلهاً واحداً".

تُعتبر هذه المرأة حالة خاصَّة. فلقد انضمَّت إلى فكرة ليوتي القائلة بالمغرب المستقل بعدما تعرَّفت عليه بفضل زوجته التي سلَّمتها شهادة التَّمريض[1]. كانت امرأة شجاعةً قبل الأوان، إذ

(1) وكان ذلك بالمدرسة التَّكوينيَّة المختصَّة بإسعاف جرحى الحرب. انظر إلى الفصل "من حياة الدِّير إلى التَّمريض (1925-1929)".

اهتمَّت بترقية المرأة في المغرب العربي. لأنَّها كانت تدرك تماما أنَّ النِّساء المغاربيَّات، لاسيما في ظلِّ الاستعمار، لن يستطعن مجابهة الحداثة إلا من خلال تكوين أساسي لهنّ.

بفضل حديقتها المحاطة بالأشجار، صار بيتها كقصر الحمراء، ولكن أيضا لأنها أرادت الاستفادة من عزلتها، مما سمح لها بالتأمل والكتابة ومقابلة أصدقائها.

بالنِّسبة إليها، جامع الفنا، الذي تغيَّر كثيرًا في نظرها، يعتبر بمثابة مرآة تعكس تاريخ مراكش، فهو فضاء يضجُّ بعوالم العصور الجاهلية القديمة، لاسيما باكتظاظه بالسَّحرة والمشعوذين الذين يرقصون، وبالتَّجار. كانت تحنُّ إلى العوالم القديمة في الوقت الذي كانت فيه متفتِّحة نحو الحداثة. دونيز هي هذه المرأة المتناقضة التي تنظر برؤياها بعيدا رغم كونها تتمسَّك بالتَّقاليد، وهذا هو سِرُّ ثرائها وغناها.

الفصل الرَّابع
مختارات من كتاباتها الفكرية والإبداعية

1 ـ خصوصية القرآن

لدى الإسلام[1] أكثر من مليار مسلم، يصلُ بينهم، على الرَّغم من اختلافاتهم السِّياسية، رابطٌ غير مشروط بالأمَّة، بجماعة المؤمنين وبتقاليدهم الملزمة والدَّاعية إلى الاحترام. بالإضافة إلى هذا التَّفاني في الممارسات التي يفرضها الإسلام، يمكننا أن نُعجب بصبر المؤمنين على الشَّدائد، على حالات الفقر والمعاناة والموت. إنَّهم يُسلِمون أنفسَهم جميعاً لإرادة الله مع تداعٍ مستمر، وهي سلبيةٌ تعيق في بعض الحالات أيَّ نشاط بنّاء على الوجه العام.

كثيرا ما نتحدَّث عن "الحوارات الإسلامية المسيحيَّة". لكن، كيف يمكن لـلإسلام كمؤسَّسة أن تتحاور مع "أشخاص"؟ وبصيغة أخرى: "ألا يكون الحوار بين الكنائس (الهيئات المؤسسة) والمسلمين" منطقيًّا أكثر؟

---

(1) Denise Masson, "La spécificité du Coran", *in Le Monde,* Paris, le 25.01.1986.

يوجد في باريس مكتب الأمانة للعلاقات مع الإسلام، وهي مفوَّضة من قبل المؤتمر الأسقفي الفرنسي. من المؤسف أن تأسيس مكتب الأمانة الخاصّ بالإسلام والموجَّه للعلاقات مع المسيحية لا يمكن حتَّى التَّفكير فيه! لا يمكن للإسلام على هذا النَّحو بأي حال من الأحوال "أن يحاور"، لأنَّه ليس لديه ما يتلقَّاه من أيٍّ كان. إنَّ التَّقليد الذي يعود إلى النَّبي، كما نقله المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون، يحظر على المسلمين أن يَقْرَؤُوا التَّوراة. كذلك، لم يُمنَعْ، في المسيحية، أولئكَ الملحدون غَيرُ المتعَلِّمين من قراءة القرآن فقط، وإنَّما أيضا من قراءة الإنجيل والتَّوراة معاً.

وبالتَّالي، فالحوار بين المؤمنين المسلمين والمسيحيِّين الصَّادقين ليس ممكنًا فحسب، وإنَّما يمكن أن يكون مثمرًا أيضًا. سيتعلَّمُ كلاهما كيف يحسنُ التَّعرف على الآخر، كيف يتفهَّم قيم تقاليده مع التَّركيز على ما يتقاطع فيه معه. سيحبُّ المسيحيُّون عند المسلمين حتما معنى "المقدَّس"، وهو التَّسليم الكلِّي والمتواصل للإله الواحد، في الوقت الذي تقيَّد فيه كثيرٌ من المسيحيِّين بمفهوم الانسان الكوني والمركزي الذي تخطُبُ به كنائسُهُم[1].

(1) يُعدُّ نأيُها عن المركزية المسيحية في نظرتها للحياة أهمَّ عاملٍ في نجاحها الحضاري. فـ"هي امرأة خرجت من صحراء الدوغمائية ومن قرى الأحادية نحو حدود جغرافية إنسانية رحبة، أعادت فيها ترتيب المعنى=

2 ـ اللا توافقية:

تستند حقوق الإنسان في الإسلام على مفروضات. على سبيل المثال، يجب على الأب تعليم أطفاله الصِّغار وإطعامهم، وهم سيكون لهم الحق، بالتَّالي، في تلقِّي ما يحتاجون إليه. يحثُّ القرآن المؤمنين على إيتاء الزَّكاة، ما يعني أنَّ الفقراء لديهم الحق في التَّكفُّل بهم. قبل فرض الضَّرائب، فرضت السُّلطات الدِّينية ضريبة على ممتلكات الأشخاص وعلى المحاصيل لصالح المتسوِّلين والمحرومين من كلِّ شيء. وفق القرآن دائماً، فإنَّ الرَّجل الذِّي يتخلَّى عن زوجته عليه أن يلتزم بتوفير ما تحتاجُه وأطفالها، ما يعني أنَّ النِّساء المطلّقات لديهنَّ

= وصياغته، (...) لتؤسس معالم عشق سريالية (...). وبذلك تعد دونيز ملكة المعنى، التي قبلت ترجمتها كبار المدارس الدينية"، انظر دونيز ماسون.. الفرنسية التي ترجمت القرآن سنة 1938 بباب دكالة في مراكش. جريدة مراكش24. انظر المرجع السابق.

رفضت أي تشكيل رسمي للمسيحيَّة بالمغرب، وكانت ترى أنَّه لا بدَّ للحركات المسيحيَّة أن تتوقَّف. عبَّرت عن ذلك في رسائلها قائلةً: إنَّ لقاءنا كمسيحيِّين مع الآخر لا يقضي أن نكون في تجمُّعات منظَّمة ومعترف بها من قبل المطرانيَّة بل يمكنها أن تكون في عفوية وصداقة. تعرف الكنيسة الكاثوليكية أزمة حادَّة جدًّا، نظرا للأخطاء المتراكمة جرَّاء الجهل، والرضا التام الذي يصنع الريبة والخيانة. إنَّني ألمح كيف صرنا نتجاوز بكل سرور "مركزية المسيح" التي لا تعير بالاً لـ"ـكلمة الله" في علاقتها بمركزية الشُّعوب، بالأفقية التي تنتشر حاليا في كون المسيح سوبرمان أو في كونه نجما هوليوودياً (1).

انظر: Nicole de Pontcharra, p. 85-86.

الحقُّ في معاش لائق. (يتمتَّع الفقراء والنِّساء المطلَّقات، حَسَب القرآن، بالحقوق وفقاً للمعنى الدَّقيق المعطى عموماً لهذه الكلمة).

وبدون إصدار حكم مسبق، يجب أن نلاحظ بعض أوجه عدم التّوافق بين مجتمع خاضع لله (التَّرجمة الحرفية لـ"المسلم") وأخرى تريد أن تكون لائكيَّة، غالباً ملحدة، أين تلتزم الدولة واجباً بالحياد الدِّيني الصَّارم.

في فرنسا اليوم، تودُّ الطَّبائعُ السَّخية التي تنتمي إلى الأغلبية، وكذلك الكنائسيُّون الأجِلاَّء الذين ليسوا على درايةٍ كافيةٍ، لو يشترك المهاجرون المسلمون في انتخابات المجالس البلدية. حتى أنَّهم ذهبوا إلى حدّ النظر في إدماجهم من حيث يتحوَّلون إلى مواطنين فرنسيين. لم لا؟ شريطة أن يوافق هؤلاء على الامتثال للقوانين الفرنسيَّة، التي لا تتناسب ووضعهم الشَّخصي، وهو ما يرقى إلى إنكار الإسلام. يجب على المسلم إذا أصبح فرنسياً أن يتخلَّى عن فكرة التَّخلُّص من المرأة (خطوة أحادية الجانب للتخلُّص من الزَّوجة التي توقَّفت عن الإرضاء)؛ أن يقبل بما أوجبهُ الطَّلاق بجميع تعقيداته القانونية ومخاطر رؤية الأطفال الموكلين إلى الأم إذا ما نُسبت الأخطاء إلى الزَّوج؛ أن ينبذ تعدُّد الزَّوجات والحقَّ في تزويج ابنته، وتسليمها إلى شخص غريب دون أن تُستشار في ذلك.

عندما تتزوج امرأةٌ فرنسية من مسلم، فإنها تعاني من عواقب القانون الإسلامي كُلِّهَا: أطفالها يولدون مسلمين. لن يكون لها حقٌ إذا مات زوجها قبلها، لا في أطفالها الذين تجاوزوا سبــع سنوات ولا في الـميراث. ومع ذلك، يمكنها أن تَرِثَ بما يمثِّلُ نصف الحصَّة التي يرثُها رجل من العائلة، شريطة أن يتمَّ الاعتراف بها على أنَّها "مسلمة" من قبل القاضي (السُّلطة) الذي كتب شهادة زواجها. يعتبر هذا "الاعتناق"، الذي يبدو على وجه التَّقريب قسريًّا أو شرعيًّا، من قبل البعض كإجراء شكلي فقط، وكإنكار من قبل البعض الآخر، لاسيما إذا كانت المرأة المعنية ههنا من أصل يهودي أو مسيحي. لا يمكن لأيٍّ رئيس دولة مسلم أن يعترف بأدنى مسٍّ للقانون القرآني: إنَّه أمر حتميٌّ ولا يعترف بأي استثناء.

يستوعب العدد المتزايد من المسلمين والمسلمات بطريقة مثاليَّة اللغات والثقافة والعلوم والفنون في البلدان الغربية، لكن ليس دون صراعات، أو معاناة، أو خيبات أمل عندما يدركون أن معظم مواطنيهم يتابعونهم بشكل سيِّء. غير أن بلدانهم الأصلية بحاجة إلى تقنيِّين ومفكِّرين رفيعي المستوى أكثر مما تحتاج فيه إلى مجموعة شبه ملمَّة بالقراءة والكتابة التي لا تفي بالغرض فحسب؛ وإنَّما تنتظرُ بفارغ الصَّبر من المجتمع أن يوفِّرَ لها "ظروفاً" هو غير قادرٍ عليها".

3 ـ مفهوم الجمال كما يتجلَّى انطلاقا من النّصوص القرآنيَّة

سأستعيد ههنا ملخَّصاً لمحاضرتين ألقيتهما عام 1979 بمدرسة اللوفر بعنوان "مفهوم الجمال في القرآن"[1].

لقد وصلت إلينا لغة القرآن من خلال النَّص، وهي لغة عربيَّة مبينة تنطوي على جمالٍ جذَّاب. ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[2]. ويعتبرُ المسلمون الوحي وهو نزول كلُّ آيةٍ من السَّماء بمثابة نعمةٍ إلهية. إنَّها تمثِّل معجزة، فالقرآن لا يمكن محاكاته. ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3]. وهو ما يسمح لنا بمحاولة استخراج تصوُّرٍ للجمال الذي يتجلَّى وفق مظاهر القراءة المختلفة للكتاب الموصوف بالعظيم.

إن جمع صيغة المبالغة في (الحسنى) من "الأحسن والأجمل" لا ينطبق إلا على وقائع حياة قادمة. فعبارة "ولله الأسماء الحسنى" ظهرت أربع مرَّات في القرآن قبل ظهور التِّسع وتسعين اسما. كذلك، تتكرَّر مفردة "الحسنى" 13 مرَّة، وهي تخُصُّ الجزاء في الحياة الأخرى، نقرأ في القرآن: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا

(1) Denise Masson, *Porte ouverte sur un jardin fermé*, pp. 317-322.

(2) سورة النَّحل، 103

(3) سورة البقرة، 23

يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1].

سنتناول ههنا إذاً مـختلف الحالات التي يظهر من خلالها الجمال في القرآن، بالمفهوم الرُّوحي أوَّلا وقبل كلِّ شيء، ذلك لأنَّ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾[2].

يؤكِّدُ النَّص أنَّ منية المؤمن الذي يريد وجه الله العلي ستتحقَّق بكاملها في الحياة الأخرويَّة: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾[3]. ولعلَّه من المسموح تأويل هذه الآية ونحن نستذكر الانجذاب المعروف لدى الطبيعة البشرية؛ انجذابٌ لا أحد يستطيع مقاومته لاسيما عندما يتعلَّق الأمر بـ"الجمال والخير". وهو طموح لن يتحقَّق حسب المؤمن إلا في الحياة الآخرة.

غالبا ما يتمُّ تناول جمال الخلق في القرآن من خلال العناصر الأكثر بساطة للحياة الدنيا اليوميَّة. كلُّ الذَّوات والأشياء هي بشكلٍ عام "إشاراتٌ من الله"، إشاراتٌ تدلُّ على خيره، على رحمته، على قدرته على كلِّ شيء، إنَّه "ملك الكون"، "ملك السماوات والأرض" (والقرآن يعود دوما إلى هذا المبدأ الأساسي جدًّا).

إنَّ الخلق هو نتيجة للإرادة الالهيَّة، فسورة التِّين تؤكِّدُ ما

(1) سورة يونس، 26
(2) سورة الحجرات، 7
(3) سورة اللَّيل، 20-21

يلي: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]. يقارن سفر إشعياء بين تكوين الانسان وَبَيْنَ عمل جَبَلَهُ الفخَّاري، وسنقرأ في الأصحاح الرابع والستّين منه (64-8)[2] ما يلي: (وَالآنَ يَا رَبُّ أَنْتَ أَبُونَا. نَحْنُ الطِّينُ وَأَنْتَ جَابِلُنَا، وَكُلُّنَا عَمَلُ يَدَيْكَ). يضيف الحديث النبوي[3]، بعد التَّكوين، ما مفاده أنَّ الله خلق الانسان على صورته.

قورن الرسول محمَّد (ص) بضوءٍ برَّاق، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[4]. وانطلاقا من القرآن دائماً، فإن الرُّوح الذي بعثه الله ليبشِّر مريم بمولودها إنَّما تجلَّى لها في شكل رجلٍ كامل، ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[5]. كما يتجلَّى أيضًا النَّبيُّ يوسف ابن يعقوب جميلا في عيون النِّساء المصريَّات اللواتي دعتهنُّ زوجة العزيز إلى مائدتها ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[6]. في

(1) سورة التِّين، 4

(2) أخطأت دونيز في رقم السّطر إذ وضعت 7 بدلا من 8.

(3) روى البخاري (6227) ومسلم (2841) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ (...) وروى مسلم (2612) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ وروى ابن أبي عاصم في السنة (517) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقبّحوا الوجوه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن". وروى ابن أبي عاصم (516) أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله تعالى خلق آدم على صورة وجهه".

(4) سورة الأحزاب، 46

(5) سورة مريم، 17.

(6) سورة يوسف، 31.

سورة النَّمل، يظهر جمال العمران بوضوح، فلكثرة ما كان الزُّجاج الممرَّد شفَّافاً بقصر الملك (النبي) سليمان والذي جُعل بلاطُه منه، خُيِّل لملكة سبأ كما لو أنَّها تسير فوق الماء؛ ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

بينما تشير هذه النُّصوص كلُّها إلى فكرة الجمال والانسجام الذي يتبيَّن في شكل الخلق، سنتبيَّن الآن كيف تمَّ وصف الطبيعة في القرآن. فحسب الكتاب المقدَّس (للمسلمين)، فإنَّ المطر، رمز الرَّحمة الالهيَّة، تبعث الأرض بعد موتها، حيث تتسبَّبُ في تغطية الأرض بالخضرة والنَّبات بعد أن كانت الأرض "ميِّتة" وجافة ويابسة. هذا البعث هو "إشارة" ودليل على البعث القادم، نجد هذا في الآيات التَّالية:

﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[2].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[3].

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ

(1) سورة النَّمل، 44.
(2) سورة الحج، 5.
(3) سورة فُصِّلت، 39.

مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

بفضل المنابع المتدفِّقة، فإنَّ الله ينبتُ النَّبات: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3].

تتكرَّر فكرة اختلاف الألوان في آيتين تصفانها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[4]. وفي آية أخرى، نقرأ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[5]، أو في ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ

(1) سورة يونس، 24.
(2) سورة الأنعام، 99.
(3) سورة الزُّمر، 21
(4) سورة فاطر، 27-28
(5) سورة ق، 10.

ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾[1]، ولكنّ أيضاً في: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[2].

سنستحضر الآن هذا الوصف الذي أوحى به الله كنصٍّ رئيسي ألهم الفنَّ الإسلامي المتمركز حول المحراب (المشكاة) الـذي يُعمَلُ في المساجد بشكل فاخر وهو يشير نحو مكة؛ ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾[3].

إنَّ ذلك الفنَّ البارعَ الذي يزيِّن به المحراب يَسْتَهْوِينا، فحسب التَّقاليد المعروفة، فإنَّ قبو المحراب وقبَّته يرمزان إلى السَّماء بينما يرمز عمود‌اه اللَّذان يتوكأ عليهما إلى الأرض. ينبغي الاضافة إلى أنَّ المصباح المعلَّق أمام المشكاة (وهو شكلٌ يتمُّ رسمه على واجهة الكثير من سجَّاد الصَّلاة) يدفعنا ضوؤه للتَّفكير في المشكاة التي تحتوي على المصباح كما وصفتها الآيات التي ذكرناها سلفا.

---

(1) سورة النَّمل، 60.

(2) سورة النَّحل، 6

(3) سورة النور، 35–36.

يبحث المؤمن عن الله خارج كلِّ مخلوقاته، خارج كلِّ من هو ممتلئٌ بالجمال كما وصفنا ذلك سلفا، فالله خَفيٌّ في سِرِّ أسراره: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾[1].

ولا يُعتبَرُ المسجد، في الواقع، فضاءً مقدَّساً، ولا وسيلة للتَّقربِ مكانيًّا من الله كما هي عليه كنائس اليهود والنَّصارى، وإنَّما كل مكان، مغطًّى أو مكشوفًا، واسعًا أو ضيقًا يمكن أن يكون موضعاً للصَّلاة بشرط توفُّره على الطَّهارة، وأن يكون بمنأى عن كلِّ ما هو نجسٌ. سينتابُ من يدخلُ مسجد قرطبة المبني بكلِّ رقيٍّ فنيٍّ ممكن إحساسٌ بالفراغ، بالصَّمت، بالتجرُّد، مستحضراً الله العليِّ العظيم، الذي لا يتجاوزه أحد. سنلاحظ كذلك، تلك الأزهار المرسومة أعلى السقف التي تتخلَّله بألوانٍ مختلفة حيث يتحدَّث عنها القرآن كعناصر تزيينيَّة.

إنَّ كاليغرافيا (فنُّ الخط) النُّصوص القرآنيَّة التي نُقِشت على الجبس الأبيض المغمور في الزُّرقة بشكلها العمائمي يدفعنا إلى التَّفكير في الانحناءات الهادئة والمتَّسقة لبعض النَّباتات، ألوان السَّجاد متلألئة، تستبعد التَّزيينات كلَّ صورة إنسان أو حيوان احتراما لصنعة الخلق الإلهية التي لا ينبغي أن نقوم بمحاكاتها كما كان ذلك في العصور الوثنيَّة التي نُبذت بصرامة حادَّة.

(1) سورة الجن، 26-27.

تبيِّن كلُّ هذه الأمكنة المذكورة أنَّ المؤمن مدعوٌّ إلى تأمُّل جمال الطَّبيعة التي خلقها الله والتِّي تدلُّ على طيبته ورحمته. سيجد المسلمون في الجنَّة روائع تعكسُ تلك التي توجد بيننا هنا على وجه البسيطة.

قلنا كذلك: إنَّ صيغ المبالغة "الأجمل والأحسن" تنطبق على ما سيُجازى به النَّاس في الآخرة، سيستمتع الفائزون منهم بالحدائق البهجة، التي تجري المياه من تحتها والأنهار. وسنجد أيضا في هذه الجنان الممتلئة بالنباتات المُزْهِرة كلَّ أنواع الفواكه الدانيَّة القطوف، نخيلاً ورمَّانًا وأعنابًا، حيث تحيط بها ظلالاتٌ وفيرة، دائمة، ومنتشرة، وسنجد تراباً مُزْهِراً، وبيوتاً فوق الخيال، وستورد الأنهرُ الأربعة، آخر المطاف، هذه الجنان. (نستذكر ههنا الأنهر الأربعة لجنَّة عدن). الفائزون سيستلقون عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَة ومنسوجة، يطوف عليهم الولدان بأواني من فضَّةٍ وكؤوسٍ من زجاج ممرَّدٍ كأنَّهم لؤلؤٌ منثور، وستجلسُ إليهم حوريَّاتٌ بعيون حوراء شبيهة بلؤلؤ مخبوء: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[1]، سيفترش الفائزون زرابي بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، وبسطاً من رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ، وسيتَّكؤون على أرائك مزركشة بها نمارق مصفوفة ويلْبَسونَ ثِيَابًا من سُنْدُسٍ ويُحَلّوْنَ فيها من أَساورَ من ذَهَب.

(1) سورة الواقعة، 22-23

خلاصةُ الأمر، سينتظر الفائزون من الحياة الأخرى سعادة تامَّة، وجزاءً أوفى وأجمل، كما هو منصوص عليه في القرآن، خصوصا، رؤية وجه الله تعالى الذي يكتمل به كلُّ مشتهًى ومنيةٍ ورجاء؛ فالله هو خالق الجمال الذي تستحيل مقارنته، وهو أقرب إلى الإنسان وأبعد عنه في سرِّه الذي لا يطَّلعُ عليه أحد: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1]. وسيخاطب النَّفس العادلة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[2].

4 ـ تأدُّبٌ مغربيٌّ وتأدُّبٌ فرنسي

يُنظْر إلى قواعد التأدُّب في الإسلام بالرُّؤية نفسها. لا وجود للطَّبقات الاجتماعية، لاسيما بفضل الثَّراء العلمي الذي يتمتع به الأفراد حاليًا. في المغرب، القاعدة هي القانون، التَّقليد الواجب مراعاته كي لا يُنظر للمرء على أنه فظٌّ أو خائن. ولعلَّ هناك تشابه بين جذر "قعد" اللغوي، و"قائد"، الذي يعطي الأوامر، وفي الفرنسية نجد مفردة قائد ـ كايد caid ـ، أي رأس القبيلة.

يُراعي الكلُّ هذه القوانين: أغنياء وبسطاء، أسياد وخدم. فلا وجود في المغرب القديم للمجتمع الطَّبقي المبني على أساس الغنى والفقر، التربية والتعليم، أسلوب العيش وطريقة

(1) سورة اللَّيل، 19-21.

(2) سورة الفجر، 27-30

التعامل مع الآخر، طريقة الكلام وطريقة الأكل؛ بعبارة أخرى، المبني على أساس المتميِّز حسب المعيشة والمظاهر.

التَّأدُّب في الإسلام مظهر من مظاهر الثَّقافة المهذَّبة، فهو فرض بنص القرآن الكريم: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾.[2]

كما أنَّه لابدَّ من عدم لفت الأنظار بما يحفظ كرامة الإنسان عند المشي في الطريق. فيما يلي، يقول لقمان لابنه، حسب ما جاء في القرآن: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.[3]

---

(1) سورة النُّور، الآية 61.

(2) سورة النساء، الآية 86.

(3) سورة لقمان، الآيتان 18-19.

ونجد أيضا في كتاب الحكمة لأحيقار[1]، فيما قبل ميلاد المسيح بعدة قرون، وصايا يقدِّمها صاحب الكتاب لابنه: يا بني – انظر بعينيك إلى أسفل واخفض صوتك وتطلَّع إلى تحت، فإنه لو كان المرء يستطيع أن يبني بيتا بالصوت العالي المرتفع لكان الحمار يستطيع أن يبنى دارين في يوم واحد[2].

يتبادلُ المسلمون التَّحية بينهم قائلين: "السَّلام عليكم"، ما يعني حرفيا: التَّحية من الله، بركته ونعمته، عليكم، والجمع دلالة على الملكين الكاتبين المرافقين للمؤمن، عن يمينه وشماله. مَهَمَّتُهُما أن يسجِّلا كلَّ ما يقوم به العبد من أعمال صالحة وغير صالحة لليوم الآخر. الجواب يكون بردِّ التَّحية بقوله: "وعليكم السَّلام". يستعمل المسلمون فيما بينهم هذه الجمل علامة على تأدُّبهم.

---

(1) يُعتقد ان أحيقار (والذي يعني أخي الموقر) هو لقمان الحكيم. تقول الروايات عنه إنه كان رجلا آشوريا ذا علم وحكمة. عاش في القرن السابع قبل الميلاد. وكان مستشارا لدى الملك سنحاريب ووزيره وحافظ ختمه. وصلت إلينا مقطوعات عثر عليها سنة (1908 – 1906) في جزيرة الفيلة قرب أسوان المصرية، وهي مقطوعات سجلها خطّاط آرامي على إحدى عشرة ورقة من البردي تحتوي على وصايا أحيقار لابن أخته. لمزيد من المعلومات، يرجى الاطلاع على كتاب لأنيس فريحه بعنوان احيقار، حكيم من الشرق الأدني القديم، منشورات كلية العلوم والآداب، بيروت، 1962.

(2) أنيس فريحة، ص 70.

بالنِّسبة لمن لم يحظوا بنعمة السُّلوك على الطريق المستقيم؛ طريق الإسلام، لا يتلقَّون سوى: "سْلاما" لوحدها. لكنَّ هناك عبارات تمنٍّ أخرى للجميع: "صباح الخير"، "مساء الخير"، "ليلة مباركة"، "الله يسهَّل"، "تروحْ وتْجِي بخيرْ"، وتكون الإجابة عن ذلك: "بارك الله فيك! ".

لا تمدّ الأيادي للتَّحايا، الأطفال، وقديما الرقيق والخدم، يقبِّلون أيادي وأكتاف أسيادهم وآبائهم. عندما نتوجّه بالحديث لشخص ما، وإن كان الملك، نلفظ قبل اسمه كلمة: "سيدي"، أو "سي"، (اِختصارا لها، لاسيما إذا كان الشَّخص لا يحمل اسم النَّبي محمد). تسبق أسماء النِّساء بلقب: "لالَّة".

إنَّ الطريقة المهذَّبة لتقديم الشُّكر، بلغة عربية أصيلة والتِّي صارت تقريبا طيَّ النسيان، هي: "بارك الله فيك"، ويمكننا ترجمتها بـ: "جعل الله فيك الخير والرحمة". تستعمل عبارات التقدير والمباركة في إعلان عن مناسبة سارَّة: في خطوبة (أي توقيع عقد الزواج من قِبل العْدول - الموثِّق)، في زواج، في ميلاد، حيثُ تُقدَّم الأمنيات للمَعْنيِّين وعائلاتهم بعبارة "البركة والسعادة". أمَّا عبارة التَّرحم فتتمثَّل في قوله: "البركة فيك"، وتأتي حرفيا على هذا النَّحو: (البركة في راسك). وعندما يعتذر (وهذا أمر لا يحدث عادة، لأن المغاربة لايخطؤون)، يقول: "سمحلي".

إنَّ الذِّكر بقوله: "بسم الله" أمر ضروري قبل القيام بأي عمل

مهما كان بسيطا: الدُّخول إلى منزل، الوضوء، الشروع في الأكل، قبل العمل... إلى غير ذلك. بعبارة أخرى، كل حدث من أحداث الحياة له ذكرٌ خاص به. عندما نلتقي بصديق نقول له: "ساعة سعيدة"، "الحمد لله"، وعند قدوم صديق إلينا نقول له: "على سلامتك"، بينما عندما يغادر نحيِّيه: "الله يهنيك".

يحلف الناس على الصِّدق والكذب، (يكون ذلك عادة في الشَّارع ومن قبل الشباب)، بقول: "والله العظيم". تُلفظ هذه العبارة دون وعي أو اقتناع، يكون وقعها سيئا في أذن يهودي أو مسيحي. يعلم هؤلاء أن كلمة "الله" أصلها عبراني.

يُبَسِّط الأوربيون حاليا لأبعد الحدود عبارات التَّأدب عندهم؛ فنسمع عادةً: بونجور (نهار سعيد)، بونسوار (عمت مساء)، بون جورني (نهار طيب)، بونابيتي (شهية طيبة)، ميرسي (شكرا)، باردون (المعذرة).

عبارة (أحرّ تهانينا) في حفلات الخطوبة، أو الزفاف، ليس لها الوقع المماثل للتَّحيات الخالصة في نهاية رسالة لسيِّد عزيز أو سيِّدة عزيزة. في نهاية مراسيم الدفن، تُقدَّم التَّعازي الحارَّة والمتأثرة، حتَّى وإن كان الميت لا يعنيك.

يبدو جفاف عباراتنا وخلوُّها من ذكر الإله للمسلمين بذيئة. فالنَّصراني يسأل عن صحَّة محدثه قائلا: سافا؟ (فالجملة بالفرنسية ?ça va لا معنى لها، وعندما نترجمها دلاليا فلا تفي

بالغرض المطلوب، حيث تفيد ما يلي: إلى أين يتجه هذا؟

المسلم يقول: كيف حالك؟ وكيف صحَّتك؟ لا بأس؟ (لا بأس عليك)، حتى عند الاحتضار، يقال: لا بأس، تعبيرا عن احترام مشيئة الله الذي يذكِّر عبده بالرُّجوع إليه.

لا يُسأل الرَّجل عن أسرته بأن يُطرح السُّؤال عن زوجته وأولاده، فهذا عيب كبير، ولكن بالأحرى يُسأل الرَّجل عن منزله، دارِه، فيجيب في الحال: كل شئ على ما يرام، حتى وإن كان الأمر خلاف ذلك.

لكن فيمَ يجب أن تتمثَّل أدبيات النَّصارى بخصوص المغاربة؟ ببساطة، في تلك المبالغة في التَّأدب المعتادة بين البشر فيما بينهم، في زيادة حسن الحديث وإعطاء الأهمية للآخرين واحترامهم، في الحرص على عدم التَّعرض سوءا، أو في التَّعرض بأقل الأضرار، لأشخاص حسَّاسين.

لا ينتظرُ المغاربة أن يتوقعوا من النَّصارى لفتاتٍ أدبيةً وظرافة. فقد يدهشهم وجودُها بحيث لم يعتادوها. إنهم يعربون عن اعترافٍ بنا لا تحظى فيه سمعتنا بأيِّ إطراء. لكن عندما يكتشف الفرنسي غشًّا أو تماديا في تعامله مع المغربي، ويظهر ذلك في تأدُّبٍ دون كلام، فإن المغربي يُعجب سرًّا بصبر النَّصراني وحزمه واحترامه للقانون. وبذا يكسب هذا الأخير تقديرَ محدِّثه المغربي.

خلال حرب سنة 1942 عرف المغرب أزمة السكر. كان يجب إذن تخصيص بطاقة للحصول على السكَّر. في ظل عدم وجود مكاتب للبلدية آنذاك، كان أرباب الأسر يقومون بإحصاء عدد الأفراد بمنازلهم (...)

ذهب أحد الشَّخصيات الـمُهِمَّة في المغرب إلى لقاء مساعد مدير الخدمات البلدية في مراكش، وهو رجل مراقب مدني وذو قيمة وثقافة ويجيد العربية طبعا. طلب منه الرَّجل حصصًا من السُّكّر تتجاوز بكثير عدد الأفراد في بيته. أصرّ طويلا، وأقسم الأيمان مظهرا مصداقيته، لـمَّا نفد صبره قال: لن أترك مكتبك ما دمت لم تعطني ما أريد؛ فأجاب الفرنسي في هدوء: "في هذه الحالة، سأحضر لك سريرا لتنام، أنا ذاهب، أما أنت فاقض الليلة مع الأغراض. عمت مساءً!" غادر المغربي مبتسمًا. لقد كان النَّصراني أدهى منه.

حدث أن استفاد مغربي آخر من خدمة هذا الموظف، فجاء إلى منزله حاملا ديكا روميًّا عظيما. هرب الطَّائر إلى الحديقة وسط استنكار صديقي، ودار النِّقاش بين الرَّجلين، ثمَّ تشاجرا، ولاحَقَا الطَّائر الذي خلَّف الرِّيش وراءه. في الأخير أخذ الرَّجلُ هديتَه وانصرف.

أقام عندي بعض الوقت عمِّي أرمان ماسون. جاء من مسقط رأسه فلاندر نازلاً بطنجة، مرتديا قبَّاعته وقُفَّازيه الأسودين، بلحيته البيضاء المهيبة. نزل بفندق المنزه، الواقع وسط المدينة (....).

صار مشهورا -وهو في ضيافتي- بسرعة لم يتمناها. ذات يوم دُعينا إلى منزل الرَّسام، سي معمري، قام عمي بتحيَّة ربَّة البيت في احترام مطأطئًا رأسَه: "احتراماتي سيِّدتي، أنا ممتنٌّ جدًّا لهذه الدَّعوة". لم تفهم السَّيِّدة شيئا، وشعرت بالعُجب والنَّشوة جرَّاء هذا الموقف الذي لم تعهده من النَّصارى.

(...)

يعتقد المغاربة، ولا يجرؤون على قول ذلك، أنَّ الأجانب لو اجتهدوا في التَّحلي بالأدب واستعمال عبارات المغاربة، لأصبحت علاقاتهم عادية، (وهذا فعلا ما يحدث تدريجيا). في السابق كنت أقول لتلميذاتي، المرشدات الاجتماعيات، من حين لآخر: "لن تَكُنَّ في انسجام مع تأدُّب المغاربة إلا إذا كانت تعاملاتكنَّ معهم مهذَّبةً وواعية. لا تنسينَ أنهم على قمَّةٍ من الحساسيَّة والحدس".

لكن تبقى بعض التعاملات تفاجئهن لأنهنَّ لم يعتدنَ عليها، فنقول بالعربية مثلا: "أنا وأنت"، مقدِّمين أنا عن أنت خلافا للفرنسيَّة: "أنت وأنا"، فنقول إذن: "نذهب إلى السُّوق سويَّةً أنا وأنت".

يمشي صاحب البيت في منزله دائما أمام ضيوفه (يجب أن لا يعلموا أين ومع إيٍّ من نسائه أو جواريه قضى ليلته) ليريهم الطريق؛ بمدخل لهُ رواق ملتوٍ، حدائقُ متعدِّدةٌ بالداخل، ساحاتٌ، إلى آخره، ذلك ليكون مستعدا للدفاع عنهم في حالة اعتداء، ربما أيضًا ليحميهم من الجن.

في البادية، يتقدَّم الأب في السَّير حاملا خنجره برباط على كتفه وعصاه، دائمَ الاستعداد للدِّفاع عن زوجته التي تسير خلفه، حاملة عادة طفلا على ظهرها، وأكياسا وقففا في يدها، إلا إذا كانت تمتطي حمارا، (ولكن ليس حصانا، فالحصان مخصَّصٌ للرجال)، أمَّا المتعلِّمون، فيمتطون بغالا، كما نراهم عندما يأتي السُّلطان بـموكبه لصلاة الجمعة، حيث لم تفرض سلطات الأمن إلغاء مثل هذه العادات.

عندما يلتفُّ الضيوف حول مائدة الأكل، فإن صاحب الدعوة، كما سنرى لاحقا، هو من يغسل يديه أوَّلًا ويبدأ الأكل المعروض.

لنتعرَّف الآن على الأكل المغربي. تتشابه قواعد السلوك الحسن بين سكان المدن وسكان الأرياف، وبين الأثرياء والفقراء، مع بعض التفاصيل.

فمثلا، في المدن حيث توجد المياه بكثرة، يمرّر الخادم أو الخادمة إبريقَ ماء على كل ضيف جالس على سرير، ليمكِّنه من غسل أصابع يده اليمنى، علما أنَّ اليد اليسرى لا تمسُّ الأكل؛ يـمسحها بمنشفة تُعطى إليه، وهي المنشفة نفسها التِّي تُعطى للكلّ. في البادية أين يندر الماء، يغمس الكلُّ يده في وعاء الماء نفسه حيث يُـمَرَّر على الضيوف واحدا تلو الآخر.

يجلس ربُّ المنزل إلى المائدة المنخفضة والمستديرة كأنه

رئيس، جاعلا فضاء الغرفة على يمينه لتلقي الأطباق. حيثُ تُقدَّم الأطباق من ثلاث إلى خمس عشرة بحسب المناسبة وكرم صاحب البيت. يتوسَّط الطَّبق الوحيد المقعَّر ذو الغطاء المسمَّى "الطاجين" المائدة، يرفع الخادم الغطاء. لا بدَّ من انتظار صاحب البيت وهو يغمس فيه قطعةَ خبزٍ، قائلا "بسم الله"، ليقلِّده الباقون. عند الانتهاء، يضرب ضربات خفيفة أسفل المائدة، إعلاما للخادم بأنه يمكنه تقديم الطبق التالي (من اللائق تركُ حصَّة للنِّساء والأطفال والخدم).

يسود وقت الأكل صمتٌ كنائسي؛ الجوّ غيرُ متوتر. يُهَشَّمُ الخبز ولا يقطع بالسِّكين؛ وَيُـجمعُ فُتاتُهُ احترامًا لنعمة الله. بعد آخر طبق، يأتي الخادم بإبريق الماء والصَّابون (عندما يتوفَّر ذلك في البيت). تُغسل الأيدي وتُـمسح كما في بداية الوجبة؛ تنتظر مراسيم تحضير الشاي الرَّاسخة: ذاتها في المدن أو في أبعد قرية تقع في الجبل. تُنصَّبُ أمام صاحب المنزل صينيَّةٌ بأربع روافع قياسُ كلٍّ منها ثلاثون سنتيمترا تقريبا. عليها وُضعت الكؤوس للضيوف: إبريق الشَّاي، بالهيئة الجميلة نفسها دائما، علبة الشاي، وعلبة أخرى تحوي قطعا كبيرة من السُّكر، وأخرى خُصِّصَت للنَّعناع اليانع، مع بعض الأعشاب المعطِّرة الأخرى. من يتولَّى تحضير المشروب الوطني سيحفِن براحة يده مقدارا من الشاي، قبل أن يضعه في الإبريق، ثم يضمُّ الأوراق جميعا. يقوم بكسر قطع السُّكر الكبيرة بمطرقة صغيرة من النُّحاس

المنقوش خُصِّصت لهذا الغرض، وذلك حتَّى يتسنَّى لقِطَعِ السُّكر أن تدخل الإبريق، يصحب هذه العملية غليانُ الماء. عندما يتحلَّل الشَّاي بما فيه الكفاية يملأ سيِّد الجلسة الكؤوس بحركة إجلال، قبل أن يُقدِّم كأساً لكلِّ ضيف. يقوم هؤلاء بتذوُّقه غارقين في حديثٍ مريح.

خاتمة

في يوم 10 نوفمبر 1994 تُوفيت دونيز ماسون برياضها مراكش عن عمر يناهز 93 سنة. ودفنت بالمقبرة المسيحية لجليز، الحي الأوروبي للمدينة، كُتِب على شاهدة قبرها باللغتين العربية والفرنسية ما يلي:

"اشتهرت بترجمتها للقرآن إلى اللغة الفرنسية، نهضت بهذه المهمة العظيمة، كما استقبلت لمدة ستين سنة برياضها الكائن بقلب مدينة مراكش كبار الفنانين والمثقفين، كاتبة وموسيقية ورائدة حوار الثقافات الأورو-المغاربية والديانات السماوية الثلاث، اختارت أن تهدي رياضها إلى فرنسا، وأن تدفن في تراب المغرب، البلد الذي أحبته، حيث تنعم روحها في طمأنينة".

لم تتنقَّل دونيز في فكرها بين الديانات فحسب، بل تنقَّلت من ضفَّة أوروبية إلى أخرى إفريقية، من إحساسٍ بالمسيحيَّة إلى تعاطف مع الاسلام ومن انتساب فرنسيٍّ إلى انتماء مغربي، كذلك تنقَّلت بين عاشقة للفن التشكيلي إلى عازفة للموسيقى ثم إلى مترجمة متقنة لأكثر النُّصوص وضوحا وتعقيدا في الآن معا. إنَّها فنَّانَة أعطت للتراث البشري كثيرًا من قلبها وروحها وإنسانيَّة في كامل تجليَّاتها الممكنة.

ثبت بيبليوغرافي مختصر لأهم أعمالها، وبالمواقع الشبكية التي تخصُّها أو تتعلَّقُ بها

- **مؤلَّفاتها :**

Le Coran et la révélation judéo- chrétienne: Etudes comparées, éd. Adrien Maisonneuve, Paris, 1958.

Le Coran, éd. Gallimard, dans la bibliothèque de la Pléiade, 1967.

Monothéisme coranique et monothéisme biblique, (doctrines comparées); préface de Jean Grosjean, éd. Desclée de Brower, Paris, 1976.

Essai d'interprétation du Coran inimitable, revue par Dr. Sobhi El-Saleh, Dar al-kitab allubnani, Beyrouth, 1980.

Les trois voies de l'unique, éd. Desclée de Brower, Paris, 1983.

L'Eau, le feu, la lumière: d'après la Bible, le Coran et les traditions monothéistes, éd. Desclée de Brower, Paris, 1986.

Porte ouverte sur un jardin fermé: valeurs fondamentales et traditionnelles d'une société en pleine évolution, éd. Desclée de Brower, Paris, 1989.

"La spécificité du Coran", in Le Monde, Paris, le 25.01.1986.

- **مؤلَّفاتٌ عنها :**

Nicole de Pontcharra, *Mademoiselle MASSON, Lettres à un jeune homme*, Rabat, éd, Non lieu, 2009.

Marie-Christine Gambart, Denise Masson, la dame de Marrakech, Film documentaire, Une coproduction Croscendo films, KTO et CRFT, 2010.

لمشاهدة الفيلم الوثائقي، استخدم الرابط الآتي:

https://gloria.tv/video/HcUs2XyVZbLv3qfc3ATx4GGaM

- **المصادر والمراجع بالعربيَّة**

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدَّس، أي كتب العهد القديم والعهد الجديد، وقد ترجم من اللغات الأصليَّة، دار الكتاب المقدَّس في الشَّرق الأوسط، 1999.

- **المؤلَّفات :**

- أحمد العلاونة، ذيل الأعلام: قاموس مترجم لأشهر الرجال والنِّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار المنارة، جدة، 1998.
- أحمد طالب الابراهيمي، مذكِّرات جزائري، ج1، دار القصبة الجزائر، العاصمة، 2007.
- محمد بن إسماعيل البخاري أبو عبد الله، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، 2002.
- ليلى دكوكة، ترجمة الوجوه والنَّظائر في القرآن الكريم عند دونيز ماسون: "دراسة تطبيقيَّة"، رسالة أكاديميَّة، مكتبة وهران الجامعية، وهران، الجزائر.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة، دار طيبة، الرياض، 2006.

- **المقالات :**

- سمير لطفي، تكريم دونيز ماسون: عاشقة المغرب، هسبرس، جريدة إلكترونيَّة، مراكش-المغرب، 16 فبراير 2010.
- عبد الكبير الميناوي، "شارعان يلخصان مراكش السياحة والمقاهي والمطاعم وجميع الثرثرات: إيقاع حياة مشرعة على الفرح وراحة البال ولا تلغي التعلق بالذاكرة والتراث"، نشر بجريدة الشَّرق الأوسط، لندن، الاربعاء 01 جمادى الأولى 1432 هـ الموافق لـ 6 ابريل 2011، العدد 11817.
- فوزية العشماوي، كيف تعامل الغرب مع القرآن الكريم؟ مجلة العربي، الكويت، يناير 2007.
- بدون كاتب، "رحيل جوليان جلال الدين فايس الأوروبي المتيّم بالموسيقى الشرقية"، جريدة الحياة، لندن، يناير- 2015.

- **مواقع إلكترونيَّة :**

- تعامل مترجمي القرآن الكريم إلى الفرنسية مع الاعلام ولاسيما ذات الصلة بالأديان السابقة، د. محمد بن محمد أكماضان، ص 10، بحث منشور على شبكة الانترنيت.

https://download-pdf-ebooks.online/files/download-pdf-ebooks.org-1466094249-881.pdf

- دونيز ماسون.. الفرنسية التي ترجمت القرآن سنة 1938 بباب دكالة في مراكش. جريدة مراكش 24، 5 فبراير 2018.

https://www.marrakech24.info/11-1263

المصادر والمراجع بالفرنسيَّة

- **المؤلَّفات :**

Chalon Paul-F, *Richesse minérales de l'Algérie et de la tunisie,* éd., H. Dunod et E. Pinat, Paris, 1907.

Charby Jacques, *Les enfants d'Algérie? récits et dessins. témoignages et dessins d'enfants réfugiés en Tunisie, en Lybie et au Maroc*, éd., Maspero, Paris, 1962.

ELIADE Mircea, *Initiations, rites, sociétés secrètes,* Paris, Gallimard, 1959.

- **المقالات :**

Arin Félix. "Le Coran, traduction de Denise Masson". *In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée,* n°3, 1967.

Arkoun Mohammed., "Masson (Denise), Les trois voies de l'Unique". *In: Archives de sciences sociales des religions,* n°58/2, 1984.

Blachère Régis, "Le Coran et la Révélation Judéo-Chrétienne, études comparées by Denise Masson", *in Arabica,* Brill, T. 7, Fasc. 1 (Jan., 1960).

Caquot André, "D. Masson. Le Coran et la Révélation judéo-chrétienne. Études comparées", in *Revue de l'histoire des religions*, 1960, 157-1.

Déjeux Jean., "Denise Masson Porte ouverte sur un jardin fermé", 1989. *In: Hommes et Migrations*, n°1123, Juin-juillet 1989.

Hamès Constant., "Masson (Denise) Porte ouverte sur un jardin fermé". *In: Archives de sciences sociales des religions*, n°78, 1992.

Koffel Jean-Pierre, "Denise Masson : paris 1902 -Rabat 1994", *in Les cahier d'Afrique du nord- Bibliographies*, n°12, Paris.

Le Tourneau Roger. "A. Demeerseman, La famille tunisienne et les temps nouveaux". In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°4, 1967.

Marguet Gaston, "Création de la commune de Fondouk (28 Aout 1851)", souvenirs algériens, in *Journal Echo d'Alger*, 08/08/1913.

Organisation mondiale de la santé, "Le Typhus en Afrique du Nord., Extraits des renseignements recueillis par la section d'hygiène du secrétariat de la société des nations" in *Relevé épidémiologique hebdomadaire*, 17 (14) du 2 avril, 1942.

Oursel Hervé, "La donation Masson à Lille: œuvres impressionnistes", *in La revue du Louvre et des musées de France*, Paris, 1977. In-4, agrafé sous couverture illustrée en couleur, 18 pp. Tiré à part, extrait du numéro 1 - 1977.

Reix André., "Denise Masson, Monothéisme coranique et monothéisme biblique. Doctrines comparées". *In: Revue Philosophique de Louvain.* Quatrième série, tome 78, n°39, 1980.

Stehly Ralph, «La familiarité islamo-chrétienne», in *Revue des sciences religieuses*, 87/2, 2013.

Vajda Georges., D. Masson. "Monothéisme coranique et monothéisme biblique". *In: Revue de l'histoire des religions,* tome 194, n°2, 1978.

- **مواقع إلكترونيَّة**

http://aujourdhui.ma/culture/denise-masson-ou-le-neon-ne-vaut-pas-la-chandelle-1-5746

http://www.who.int/iris/handle/10665/235511